

تأريخ حضرة موت السِّيَاسِي

مُزَيَّنٌ بِالْخَرَائِطِ وَالصُّوَرِ وَالرُّسُومِ الْفَنِّيَّةِ

تأليف

صلاح البَكْرِي

الجزء الأول

الناشر

مكتبة الصنعاني

حقوق الطبع محفوظة

مقدمة

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده على ما أنعم . ونصلى ونسلم على خاتم النبيين ،
وعلى آله وصحبه أجمعين

لا يوجد في الكتب العربية وعندها كتاب وافٍ بتاريخ « حضرموت » قبل الإسلام وبعده ، ولسنا نعرف من المؤرخين وأصحاب السير والأخبار واحدا أفرد كتابا خاصا في هذا الموضوع الذي نحن بصددده . وإنما هي نتف متفرقة ، وشذرات مبعثرة في كتب كثيرة ، لمؤلفين كثيرين من العرب والفرنجية ؛ على أن هذه النتف يناقض بعضها بعضا ، ويخالفها من نواحي حمة ، وبعضها يباليغ في وصفه القُصَّاص ، ويتجاوزون حدَّ المعقول . لاسيما فيما يتعلق بالتاريخ القديم (عاد ، وأقيال التابعة ، وملوك حمير) .

ولقد بذلنا جهودا جبارة ، وتكبدنا متاعب شاقة في غريلة تلك النتف وتصفيها ، وحذف ما لا يقبله العقل ، ولا تثبتته المراجع المعتمدة ، والذي أوردناه منها أشرنا إلى عدم صحته . وأخذنا الخلاصة من ذلك وأبرزناها — بعد أن أضفنا إليها وثائق هامة من مذكراتنا التي لم تنشر بعد — في ثوب قشيب . وبأسلوب غير مملٍّ ، ليتيسر للجمهور الاطلاع على تاريخ حضرموت ، وما جرى فيها من جلائل الحوادث ، وما قاسته

من فجائع الأهوال ، والوقوف على تاريخ الأسلاف من الآباء والجدود . وما قاموا به من الأعمال العظام ، وما تكبدوه من الخطوب الجسام .

فكتابنا هذا هو أول كتاب من نوعه في تاريخ « حضرموت » السياسي ، فهو أول منارة أقيمت لهداية أولئك السارين الذين يريدون أن يعرفوا الشيء الكثير عن تاريخ حضرموت ، وهو يعدّ خطوة لا بأس بها في تقدّم الحضرميين . ولقد التزمنا في كل ما كتبناه العدل والإنصاف ، وقول الحقيقة بخلافها .

ويشمل الجزء الأول خلاصة جغرافية وجيولوجية حضرموت . وتاريخ عاد ، وأقيال التباغة ، وملوك حير وحضارتهم ، وما تركوه من الآثار والرسوم ، ودخول الإسلام في حضرموت وكندة الإسلامية ، وهجرة الحضارم إلى بغداد ومصر والأندلس لطلب العلم ، وإلى سواحل أفريقيا الشرقية وإلى الهند للتجارة . ويتحدث هذا الجزء عن هجرة آل باعلوى من البصرة إلى حضرموت ، وعن إمارة نهد وآل راشد ، ثم ظهور الدولة الكثيرية ، فنشوء الدولة اليافعية ، وما قام بينهما من الحروب .

أما الجزء الثاني ، فيشمل النزاع الذي حدث في العائلة اليافعية المالكة ، وامتداد فتوحات يافع في البلاد السواحلية ، وفي دوعن وغيرها من البلاد الحضرمية ، ويتحدث عن معاهدة « عدن » بين الدولتين اليافعية والكثيرية ، وحرب الغرفة ، وعن المؤتمر الحضرمي بسنغافورة ، وإخفاق مساعيه ، ويتحدث عن نظام الدولتين السياسي ، وعن الحالة الاجتماعية في الحواضر والبوادي . ويتحدث عن هجرة الحضارم إلى جزائر الهند الشرقية (أندونيسيا) وما قاموا به من الأعمال ، وما حصل بينهم من النزاع والخلاف ؛ ويتحدث عن القرين وأحوالهم الاجتماعية ؛ وعن بني كثير في ظفار .

وأرى من الواجب أن أشكر السيدين الفاضلين D. Van Der Meuler و H. Van Wissmann فقد سمحا لي بأخذ بعض صور من كتابهما Hadramaut

الذى كتباه عن رحلتها سنة ١٩٣١ ، وأشكر أيضا من الصميم السيد الفاضل
O. H. Little الذى أخذت من كتابه The Geography and Geology of
Makalla بعض صور ، كما اعتمدت عليه فى كلامى عن جيولوجيا حضرموت .
وإنى لأرجو أننى بهذا الكتاب ، قد أدّيت بعض ما علىّ من الواجبات الوطنية
والفروض القومية .

والله أدعو أن ينفع به ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

صالح عبد القادر البكرى البافعى

القاهرة } ١٦ ذى الحجة سنة ١٣٥٣
 } ٢١ مارس سنة ١٩٣٥

مقدمة

الطبعة الثانية

على الرغم من مضي أكثر من عشرين عاما على الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، فلم
يقم كاتب بتأليف كتاب عن « تاريخ حضرموت » هذا الجزء من جنوب شبه الجزيرة
العربية ، الذى كان له القيدح المعلى فى إنشاء حضارة معين ، وسبأ ، وحير . فكتابنا
هذا « تاريخ حضرموت السياسى » لا يزال محتفظا بالأولية . ولقد انتشر والحمد لله
فى بلدان كثيرة ، واحتلّ أماكن بارزة فى المكاتب العربية والأجنبية .

ونحن إذ نشكره تعالى على هذا الفضل ، لانسى أن نتقدم بالشكر الجزيل
لحضرات القراء من العرب ، ومن غير العرب ، الذين أقبلوا بشغف على قراءة هذا
الكتاب ، حتى نفذت الطبعة الأولى .

والله نسأل أن يهيء به النفع ، وأن يجعل الجهد الذى بذلناه فيه خالصا لوجهه
الكريم .

المؤلف

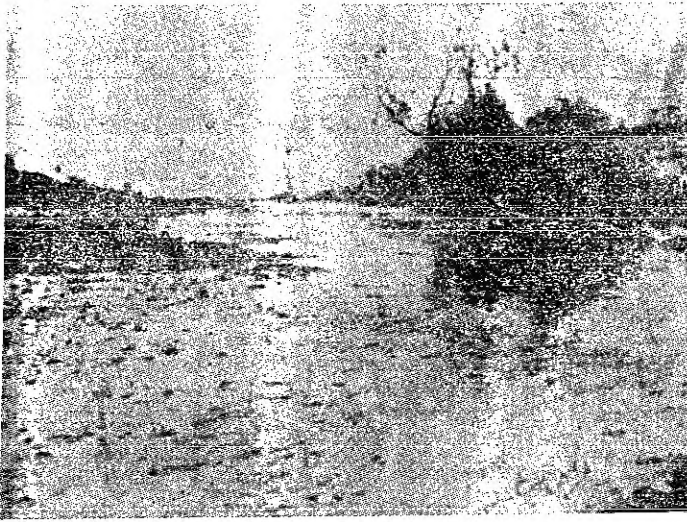
صالح البكرى

القاهرة { ذى القعدة سنة ١٣٧٦ هـ
يونيه سنة ١٩٥٦ م

١ - جغرافيا وجيولوجيا حضرموت

على بعد خمس عشرة درجة عرضا شمالى خط الاستواء ، وخمسين درجة طولاً شرقى جرينوتش Greenwich وما بين ظفار شرقاً وعدن غرباً ، ورمال الدهناء شمالاً والبحر العربى جنوباً ، تقوم سلسلة جبال صخرية جرداء ، وبين هذه الجبال أودية فسيحة منبسطة متصلة ببعضها من جهات . ومقطوعة من أخرى ؛ وتمتد هذه الأودية إلى الشمال حتى تبلغ ٤٩° طولاً ، ثم تنعطف نحو الجنوب ، وتنتهى فى سيحوت عند خط ٥١° طولاً شرقى جرينوتش . وعلى امتداد هذه الأودية توجد المدن والقرى ، وتأخذ المزارع مساحات واسعة من الأراضى ، وأجود الأراضى الصالحة للزراعة هو الوادى الرئيسى بين الفرط وعينات حيث تجتمع سيول الأودية العليا ، وتنحدر إليه وتنبسط فيه ، فتكسبه طمياً كثيراً . وفى هذا الوادى الفسيح يزرع القمح فى الشتاء ، والذرة فى الصيف بماء الآبار الارتوازية ، والماكينات النازحة للماء ؛ أما بقية الأودية الأخرى فيزرع فيها الذرة بماء المطر ، لبعدها الآبار الذى لا يحصل عليه إلا على عمق ٣٥٠ - ٤٠٠ قدم ، وتستعمل للشرب . وتشغل الكتبان الرملية مساحات كبيرة فى طريق القبله (اليمن) وبين عينات وسيحوت ، وتهب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، مشبعة ببخار الماء ، فتصطدم أحياناً فى طريقها إلى الشمال بجبال الشواطئ ، وتنزل هناك مطراً ، ولا يسقط المطر فى المضارب الداخلية إلا فى النادر القليل ، ولذلك ، فقد يشتد الجفاف فى دوكن وعمد ووادى العين وبلاد نهد وسر وعدم ، ويشتد البرد فى الشتاء ، وترتفع درجة الحرارة فى الصيف ، فيشعر الأهالى بلفح الحر الناتج من إشعاع سفوح الجبال الجرداء ، ولا يشعر المرء بالرطوبة ليلاً إلا على الجبال المكشوفة . والجو جاف وملائم للصحة . وفى الصيف تهب ريح ساخنة يقال لها السموم ، وهى تساعد على إنضاج البلح . ويمتد الإقليم الساحلى من عين بامعبد غرباً إلى سيحوت شرقاً . وهو عبارة عن

شكل غير منتظم مساحته نحو ٤٥٠٠ كيلو متر مربع ، وهو يمتد في الداخل إلى مسافة ٨٠ كيلو مترا من رأس الكلب ، وعشرين كيلو مترا عند الحدود الشرقية ، وأعلى نقطة فيه تقع في وسطه ، وارتفاعها ٢١٨٧ مترا ، وهي تتدرج نحو الشاطئ شرقا وغربا ، وتراجع في الوسط ، فتضمّ بينها سلاسل جبلية ، احتفرت الأنهار لنفسها فيها وديانا إلى البحر . وعلى امتداد الوديان توجد متسعَات من الأرض بها بعض المزروعات . ولكن الإقليم على وجه العموم يتكوّن من تلال ومنحدرات جرداء ، وتدرج سفوح التلال نحو البحر مكوّنة رعوسا فيها طبقات من الرواسب النهرية .



« نهر حَجَر »

ومن الظواهر الطبيعية في هذا الإقليم ، ذلك النهر (نهر حجر) الذي يصبّ بالقرب من رأس الكلب ، ويكوّن دلتاه إقليم ميفع الخصب ، وهو يشقّ طريقه في ثلاثة خنادق ، وعلى امتداده توجد قرى بها أكثر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعية ، وكلّ مياه الإقليم تنصرف في البحر ، حتى تلك الأودية التي تسير في شمال الهضبة الغربي ، إذ تصبّ في وديان عرضية عميقة حفرت لنفسها طريقا إلى البحر ، وكل الوديان متوازية تقريبا ، وهي تمتدّ لمسافة تتراوح بين عشرة وعشرين كيلومترا عند منتهائها بين خطي عرض ٣٥° ، ٤٠° ، والوديان ملأى بالصخور المهشمة ،

وترتفع تدريجاً ، وتصبح حافاتهما شديدة الانزلاق ، ثم تعترضهما جنادل وخوانق ، ثم تخترق عدة عقبات متتالية ، ويبلغ ارتفاع سفح العقبة من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ متر ، وقمتها من ٦٠٠ إلى ٨٠٠ متر ؛ وعند رعوس بعض الوديان توجد كميات من المياه يخفرها الناس القنوات على جانبي الوادى إلى مسطحات من الأرض ، وبعد رى هذه المسطحات تغوص المياه في باطن الأرض ، ثم تظهر بعد مسافة طويلة ، إما من تلقاء نفسها ، وإما بجفر آبار تتباين أعماقها ، وقد يبلغ عمق البئر ٤٠ متراً ، وتوجد بين عين بامعبد وبرعم تعريجات عديدة ترسو فيها القوارب ، ولكنها غير صالحة فى إبان هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، وفى المكلا إلى الشحر يصبح الساحل رملياً ، ويتدرج نحو البحر . وميناء المكلا عميق هادئ صالح لرسو السفن . أما ميناء الشحر فضحل ، وفى ديسمبر ومايو تهب الرياح على البرّ غالباً من الشمال الشرقى ، وعلى طول الساحل يشعر المرء بنسيم البرّ والبحر . ويمتدّ تياره إلى بضعة كيلومترات داخل الوديان ، ويشتدّ البرد عند ارتفاع ١١٢٠ متراً ، ويعتدل عند ارتفاع ٢٥٠ متراً ؛ وفى شهر مارس تصبح أشعة الشمس محرقة للغاية ، والجوّ جافّ ملائم للصحة فى أعلى الهضاب ، والمنطقة الوحيدة التى فيها خطر على الصحة ، هى منطقة مينع المليئة بالبعوض . والتغير فى الطقس بين الساحل وداخل الوديان محسوس جداً ، ودرجة الحرارة فى الظلّ فى الظهيرة مرتفعة ، سواء على الساحل أو على الجبال ، ولكن درجة الحرارة فى الليل تنخفض كثيراً . وفى مدينة المكلا يبلغ أدنى حدّ لدرجة الحرارة فى شهر مايو ٦٥° فهرنهايت . والليل فى الوديان أرطب منه على الساحل ، وفى بعض الوديان يهبّ ريح ساخن طول الليل .

الجيولوجيا الطباقية (Statigraphical Geology)

الصخور الرئيسية للإقليم نارية مركبة ، تعلوها طبقة من الحجر الجيري من العصر الجوراسى (Jurassic) ثم تليه طبقة من الصخر من العصر الطباشيرى (Cretaceous) . ثم قشور اردوازية (Shales) وتتلو الطبقة الطباشيرية طبقة من الحجر الجيري من عصر الأيوسين (Eocene) مختلطة بصخور من الحجر الرملى من عصر الأوليجوسين

(Oligocene) وصخور اردوازية ، ويوجد الطفل الجبسى فى الأحواض ، وتتكوّن الطبقات الحديثة من الطمى والرمل ، وفى الوديان تتكوّن الرواسب الغرينية فى فتات الصخور الرملية الأيوسينية والطباشيرية . وفى بعض الجهات تتكوّن من فتات الصخور النارية والمتحوّلة ، وبقرب رءوس أغلب الوديان ، تصبح هذه الرواسب ناعمة ، وتتكوّن أراضي ميفع الزراعية من طفل رملى عبارة عن خليط من الرواسب النهرية والرمل الذى تسفيه الرياح ، وعلى بعد مسافة قصيرة من البحر يصبح قاع الوديان ، وكذلك مجارى المياه مألّانة بالصخور ، وعلى طول الساحل تسفى الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الرمل على التلال ، وعلى الأخصّ عند رأس رحيمة ورأس شهابة حيث لا تظهر إلا قممها النارية على ارتفاع ٤٠٠ ، ٥٠٠ متر ؛ وفى الوديان تراكم الرمال وتشغل الكثبان الرملية مساحة قدرها ٢٠٠ فدان ، ولقد أثرت فى أغلب سهول ميفع ، فقلت الأراضي الصالحة للزراعة .

عصر البليوسين (Pliocene)

فى وديان ومنخفضات الإقليم الساحلى توجد قطع مستديرة من الحجر الجيرى المتبلور ، وفتات الصخور النارية ، وهى توجد فى طبقات من العصر الجوراسى والطباشيرى والأيوسين والأولجوسين بدون توافق ؛ وفى واد صغير جنوب كنيّنة توجد حفريات من عصر الميوسين ، وهى تتكوّن من :

طبقة من الحجر الجيرى الأصفر ارتفاعها ٣ أمتار

طبقة من الإردواز الأخضر ارتفاعها ٥ أمتار

طبقة من حجر جيرى أصفر بها هذه الحفريات ارتفاعها ٣ أمتار

وهذا الحجر الجيرى الأصفر أحدث تكوينا فى طبقة الجبس التى يبلغ ارتفاعها ٦٠ مترا ، وتتكوّن التلّ القائم شمال كنيّنة . وفى وادى حويرة توجد تحت سطح الأرض طبقة من معدن اللجنيت (Lignite) كثافتها ٣٠ مليمتر ، وبها بعض القار فى حجم راحة اليد ، وبها حفريات من فصيلة ملائيا ثوبركبولاً تامولروزونيكوس . وفى وادى الحرشيات توجد طبقات من الحجر الجيرى ، وحبيبات دقيقة من الكوارتز

والفلسبار . وفى وادى واسط عند سفح جبل شرج باسليم توجد طبقات جيرية ، وفى غرب فوه توجد مدرجات مكوّنة من صخور نارية ، كما توجد أيضا عند ملتقى وادى واسط بوادى كلبوت . وفوق الحجر الجيرى الذى يرجع إلى عصر الأيوسين الوسيط ، سلاسل من الطبقات تبلغ كثافتها نحو ٢٠٠ متر ، وهى ملوّنة تلويّنا خفيفا ، وتتكوّن هذه الطبقات عند قاعدتها من حجر جيرى أبيض أو أصفر ، وحجر رملى باهت الصفرة ، وفى نهايتها تتكوّن طبقات جبسية وطفيلية تبلغ كثافتها ٥٠٠ متر ، وقد وجدت بعض حفريات ونظام الطبقات من مصبّ النهر عند نيفع إلى جول باحوه ومنها إلى كنيّنة ثم جبل كساي إلى المكلا كما يأتى :

فى ميفع توجد طبقات من الصخر الرملى المسامى ، وفى نيفع تتكوّن الطبقات من الحجر الجيرى وطبقات من الإردواز الأحمر أو الأصفر والحجر الرملى الأسود ، ثم طبقات من عصر الميوسين مكوّنة من طبقات جبسية بيضاء . وفى جزول طبقات مكوّنة من الجبس ، ونظام الطبقات هى كما ذكره الأستاذ العلامة لتل (O. H. Little) ١ :

طبقة من عصر البليوسين الجيرية كثافتها من ٥ إلى ٣٠ مترا مربعا .

طبقة من الجبس من عصر الميوسين كثافتها من ١٠ إلى ١٥ مترا مربعا .

مارل أبيض من عصر الميوسين ٣٠ مترا مربعا .

جبس أخضر أو أصفر من عصر الميوسين ٢٠ مترا مربعا .

حجر رملى داكن من عصر الأوجوسين ١٠ أمتار مربعة .

جبس ٣٠ مترا مربعا .

حجر جيرى أبيض مختلط بالمارل ٣٠ مترا مربعا .

جبس عديد الألوان ٥٠ مترا مربعا .

(١) فى سنة ١٩١٩ طلبت الحكومة التعميطية اليابانية إلى الحكومة المصرية أن ترسل إليها مندوبا ليعمل مساحة تفصيلية عن المنطقة الواقعة بين المكلا و حجر ويبحث عن المنعادن فيها ، فأوفدت العالم الجيولوجى الأستاذ O. H. Little فنشر تقريرا وافيا بالإنجليزية طبع فى مصر سنة ١٩٢٤ .

حجر جيرى أبيض من ٢٠ إلى ٨٠ مترا مربعا ، ثم حجر جيرى من عصر الأيوسين .

كنينة : يوجد فى شمال كنينة جبس كثير يمتد مسافة عظيمة . كوّن تلالا ارتفاعها ٥٠٠ متر ، وعلى بعد كيلومتر يوجد بقعة من الحجر الجيرى الأصفر محتوية على حفريات ترجع إلى عصر الميوسين . ويوجد هناك عقبة على قممها مخروط من الجبس كثافته ٦٠ مترا على طبقة من الصخر الأصفر الاردوازى كثافتها ٥٠ مترا وفى وادى مريرة (فى حجر) يوجد حفريات ترجع إلى عصر الأوبلوسين ، وعلى مقربة من مريرة يوجد واد يتصل بواد آخر به نماذج كثيرة من الحفريات التى ترجع إلى عصر الأوبلوسين .

ونظام الطبقات هو كما ذكره الأستاذ لتل :

حجر جيرى رمادى اللون	كثافته ٤٠ مترا
جبس أصفر به حجر جيرى داكن	كثافته ١٥ مترا
حجر جيرى رمادى	كثافته ٥ أمتار
حجر جيرى أبيض به حفريات	كثافته ١٠ أمتار
حجر جيرى داكن به مارل أبيض	كثافته ١٠ أمتار
اردواز أصفر مخطط	كثافته ٥ أمتار
طبقات اردوازية مخططة بها طبقات من الحجر الجيرى	كثافته ١٠ أمتار
كتل من المارل الداكن	كثافته متران
حجر جيرى أبيض به ثقوب كثيرة	كثافته ٣ أمتار
اردواز أصفر مخطط	كثافته ٥ أمتار
حجر جيرى أبيض به مارل وحفريات	كثافته ٥ أمتار
حجر جيرى رمادى من عصر الأيوسين	كثافته ٥ أمتار
وفى جنوب وشرق الحراشيات تمتد طبقات ميوسينية بحسب النظام الآتى :	
طبقات اردوازية جبسية وطفلية	كثافتها ٥ أمتار
حجر جيرى أبيض به مارل	كثافته ٥ أمتار

كثافته متران	اردواز أبيض
كثافته ٣ أمتار	اردواز أحمر وأصفر
كثافته ٥ أمتار	اردواز مخطط أصفر وأبيض
كثافته ٥ أمتار	حجر رملي ناعم أحمر وأبيض

وإلى الشمال عند المستنقعات الواقعة غرب تلال السفلى توجد منطقة بها طبقات كثافتها ٨٠ مترا . وفي غيل باوزير توجد طبقات اردوازية صفراء وبضياء .

عصر الأيوسين (Eocene)

توجد في المكلا مرتفعات عمودية ترتفع عن سطح الوادي ٥٠٠ متر . وتتكوّن طبقاتها العليا من صخور من عصر الأيوسين الوسيط . تغطي بطبقة من الحجر الرملي من العصر الطباشيري . وفي بعض الأماكن التي تظهر فيها قاعدة هذه الطبقات توجد تحتها صخور نارية . وفي أماكن أخرى يوجد عدم توافق إذ توجد بين الصخور الرملية والنارية طبقة من الصخور الاردوازية بها حفريات من العصر الجوراسي . وتتكوّن الطبقات العليا في جبل شرج باسليم من كتل ضخمة من الحجر الجيري المتبلور . المختلط به رخام أبيض وأحمر . فوق عروق حجر جيري رملي ، به عروق من الحجر الجيري المتبلور كثافتها ١٠ مليمترات . ترجع إلى عصر الأيوسين الحديث ويكون الحجر الجيري الأيوسين الوسيط سطح المضارب في الداخل ، وهو شديد الصلابة ، يقاوم الالتواء . فيه عيوب كثيرة .

العصر الطباشيري (Cretaceous)

تحت الحجر الجيري طبقات من الحجر الرملي كثافتها ٥٠٠ متر . وهي ذات ألوان متباينة ، ولكن يغلب عليها اللون الأحمر ، وتوجد بينها عروق من الكوارتز ملتصقة ببعضها ، وقد توجد بها طبقات اردوازية محتوية على مركبات فحمية أو لجنينية ، ونظام الطبقات هو كما ذكره الأستاذ لتل :

طبقة من الحجر الجيري من عصر الأيوسين الوسيط . تتراوح كثافتها بين ١٠٠ . ٣٠٠ متر .

طبقة من الحجر الرملى تتخللها عروق من الحجر الجيري تتراوح كثافتها بين ٢٠ . ٢ مترا .

طبقة اردوازى تتخللها طبقات رملية أو بلخيتية من ٥ إلى ٢٥ مترا .

حجر رملى به اردواز جرفته السيول من ١٠ إلى ٢٠ مترا .

حجر رملى صلد من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ متر .

وتوجد بعض حفريات مشوّهة من الطبقات الاردوازى ترجع إلى العصر الطباشيرى ، وتوجد حفريات فى وادى عروس ، وتوجد طبقات من الحجر الرملى على جانبي الوادى تكوّن جزرا فوق سطح الطبقة الجيرية بها بعض حفريات ترجع إلى العصر الطباشيرى القديم . ووسطها وقمتها من العصر الطباشيرى الحديث .

العصر الجوراسى (Jurassie)

على الشاطئ الجنوبي للنهر عند نيفع توجد حفريات فى منطقة يبلغ ارتفاعها ٤٠ مترا . وتتكوّن المنطقة من صخور جيرية قائمة . واردواز وصخور زيتية . وشرق حصن باقردان توجد بعض حفريات جيوراسية أيضا ترجع إلى العصر اللويزيتانى ، وعلى بعد ٤ كيلومترات فى ملتقى وادى عروس حفر الأستاذ العلامة لتل حفرة نصف متر ، فوجد فى قاعها صخور زيتية بها حفريات مشوّهة . ونظام طبقات هذه المنطقة هو كما ذكره الأستاذ لتل :

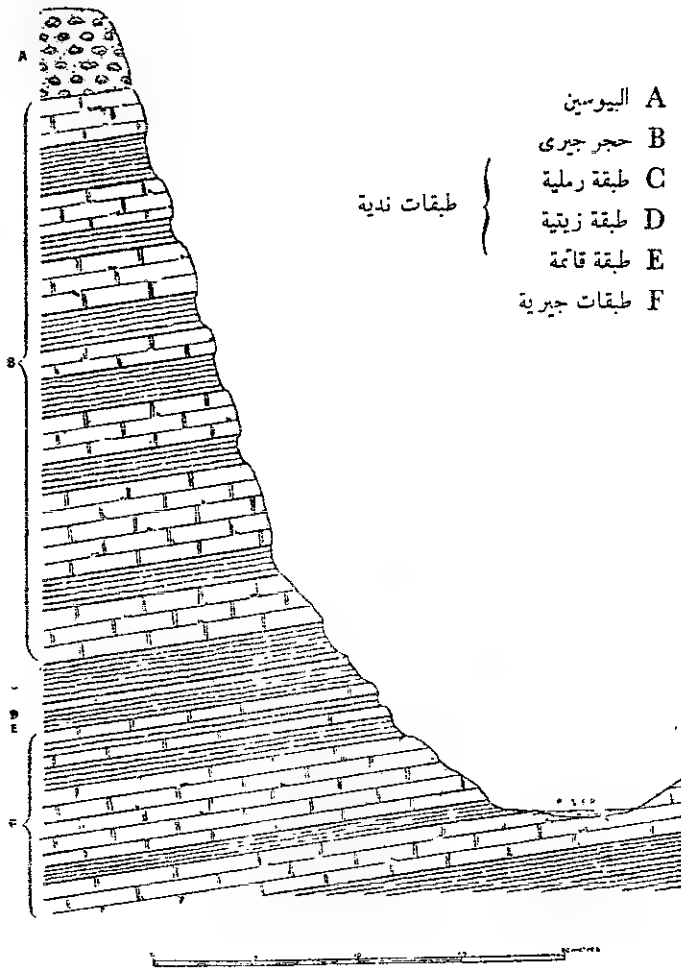
(١) طبقة من الحجر الرملى بنى مائل إلى السمرة من العصر الطباشيرى ، كثافتها ٢٠ متراب (أى مربعا) .

(٢) اردواز أخضر وأزرق طباشيرى كثافتها من ٢ إلى ٥ أمتار ب .

(٣) حجر جيرى أصفر مائل للسمرة به حفريات من العصر الطباشيرى القديم ، كثافتها من ٣ إلى ٥ أمتار ب .

(٤) اردواز أصفر ربما كان من العصر الجوراسى ، كثافتها ٢٠ متراب .

(٥) حجر جيرى رمادى . ربما كان من العصر الجوراسى كثافتها ١٠ أمتار ب .



- (٦) حجر جيرى أبيض ، ربما كان من العصر الجوراسى كثافته ١٠ أمتار ب :
 (٧) اردواز أبيض به مارل ، ربما كان من العصر الجوراسى كثافته ٢٠ متراب :
 (٨) عروق من الحجر الجيري الأبيض من العصر الجوراسى كثافتها ٣٠ متراب :
 (٩) حجر جيرى أصفر و اردواز من العصر الجوراسى كثافته ٣٠ متراب .

(١٠) اردواز كلّس وحجر جبرى به فحم وقمته مكوّنة من صخور زيتية من العصر الجوراسى كثافته أكثر من ٢٠ متراب .

وتشبه الطبقات ٥ ، ٦ . ٧ : ٨ : الطبقات الجوراسية التى بالقرب من حصن باقردان ، وربما كانت الطبقات ٩ ، ١٠ تشبهان الصخور الزيتية فى نيفع ، وطبقة الحجر الجبرى التى تكوّن سطح المنحدر عند سفح جبل الدعلية وجبل الغبر ورأس العقبة تشبه الطبقة الجبرية التى ترجع إلى العصر الطباشيرى القديم فى وادى عروس ، وعند رأس العقبة يبلغ ارتفاع الطبقة الجبرية ٨١٥ مترا : وتفضلها عن الصخور النارية طبقة من الحجر الرملى كثافتها ٢٠ مترا . وفى جبل الدعلية يبلغ ارتفاعها ٧٠٠ متر ، ويفصلها عن الصخور النارية طبقة من الحجر الرملى كثافتها من ٣٥ إلى ٥٠ مترا ، وطبقة من الاردواز والحجر الجبرى كثافتها من ١٠ إلى ٢٠ مترا . وبالقرب من حصن باقردان طبقة يبلغ ارتفاعها ٤٥٠ مترا : وتفصلها طبقة من الاردواز والحجر الجبرى كثافتها ١٣٠ مترا ، ثم طبقة من الحجر الرملى كثافتها ٢٠ مترا . وعند وادى عروس يبلغ ارتفاعها ٥٠٠ متر . وتفصلها طبقة من الحجر الجبرى الاردواز كثافتها ١٥٠ مترا ، ولكن لا يوجد بها حجر رملى .

الصخور المتبلورة :

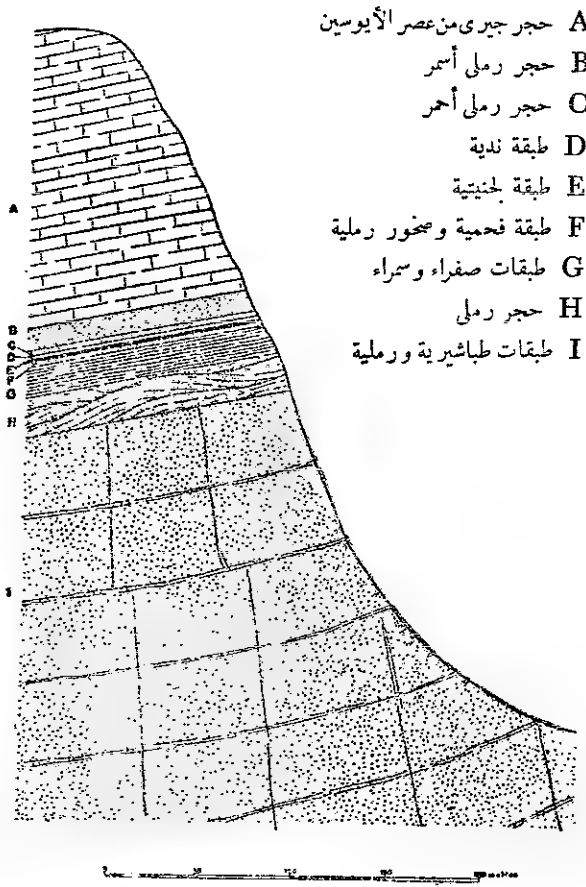
تمتدّ الصخور النارية المركبة فى كتل من الشاطئ إلى الداخل مسافة ٤٥ كيلومترا وقد نحتت الطبقات الجوراسية أو الطباشيرية القديمة التى تعلوها : وأصبحت تكوّن مرتفعات منعزلة ، وهى تتكوّن من صخور حمضية نارية متداخلة فى صخور قديمة . وفى بعض المنخفضات فى حوطة فخيدة على طول وادى توجد صخور متحوّلة . وتوجد تلال نارية إلى الجنوب والغرب من بروم ، كما توجد صخور جرانيتية شرق النهر . ويوجد الجرانيت على طول قاعدة حصن باقردان وغرب فوة : وفى جبل جرز وجبل الحمار ووادى فحمة وجبل جريس وجبل عسلات . وفى قاع الوادى على مقربة من تلال العليا يوجد بازلت مختلط بالبيريت المحتوى على عروق من الجرانيت الناعم ، ويتكوّن رأس المكلا من الدرّيوت والبازلت المحتوى على عروق من الجرانيت الناعم

ويكون البازلت القمم الواقعة شمال شرق رأس بروم ، وبه بعض عروق من الجرانيت الناعم . ويوجد البازلت أيضا في يمين وادي الغبر .

الجيولوجيا الاقتصادية (Economic Geology)

يوجد في جبال الشواطئ نحو خمسين نوعا من المعادن : منها اللجنيت ، الأحجار الزيتية ، الكحل ، القار البيريت (ويظنونه ذهباً) ، النحاس . ولكن بعض هذه المعادن قليل الفائدة ، والبعض الآخر لا يوجد منه إلا مقادير قليلة . وأهم هذه المعادن معدن اللجنيت Lignite وهو في جبل كسعى ، وجبل دعلية ، وبالقرب من أسفل العين : وتتراوح عروقه المعدنية ما بين نصف متر ومترين ، ويوجد أيضا في جبل المكلا ، وهو يشتعل بلهب أزرق لامع ، وله رائحة كبريتية ، ويبيض لهبه بعد ساعة ، ويتصاعد منه دخان ، ثم يصبح بعد بضع ساعات أزرق باهتا ، تنبعث منه رائحة أول أكسيد الكربون ، ويوجد كثير منه في أسفل العين على ارتفاع ٤٠٠ متر من سطح البحر ، وقد صعد إلى هذه المنطقة الأستاذ لتل ، فوجد اللجنيت مختلطا مع غيره من المواد الغريبة ، وإليك عدد الطبقات التي ذكرها :

طبقة من الحجر الجيري من عصر الأيوسين المتوسط كثافتها ١٥٠ مترا	
طبقة من الحجر الرملي الأحمر الداكن	كثافتها ٢٠ مترا
طبقة من الحجر الرملي الصلب	كثافتها ٣ أمتار
طبقة اردوازية صفراء قائمة	كثافتها ٣ أمتار
طبقة من الطفل الأزرق الرطب بها عروق الشب	كثافتها ١١٠ سنتمترات
طبقة من اللجنيت	كثافتها من ٣٥ - ٥٠ سم
طبقة من الحجر الرملي الرطب من العصر الفحمي	كثافتها ١٠ سنتمترات
طبقة من الحجر الرملي الرطب من العصر الفحمي في أعلاها عروق من البيريت	
الحديد	كثافتها متران
قشور صخرية صفراء وزرقاء ورمادية	كثافتها ١٥ مترا



طبقات لجنيتية
في كهف بأسفل العين

صخر رملي كثافته ٢٠ مترا

قمة عالية من الحجر الرملي الصلب كثافتها ٢٠٠ متر

أما في جبل كسعى فيوجد في منطقة ترتفع ١٥٣٠ مترا عن سطح البحر ، وهذه المنطقة مكونة من لجنيت أسود كثافته متر ونصف ، وبه عروق من الجبس والشب الأصفر والأبيض وبعض بقايا نباتية ، وهو يقع فوق طبقة كثافتها نصف متر من حجر الصابون غير النقي ، وفوقها طبقة كثافتها متر ونصف من الطفل الأزرق ،

ولقد بعث السلطان المرحوم غالب بن عوض القعيطى فى سنة ١٩١٩ بعض عبيده إلى جبل كسعى وأسفل العين ليجثوا عن تلك المعادن الثمينة، ولكن لم يكن بينهم خبير بعلم الجيولوجيا ، فعادوا إلى المكلا بنماذج قليلة . ويوجد اللجنيت أيضا فى جبل الدعلية كثافته تتراوح بين متر ومترين ، وهو أسمر قاتم ، ولكن سطحه لامع وهو صلب متماسك ، ويحصل على عمق ٣٠ مترا ، وتغطيه طبقة من القار ، وبالقرب من تلال العليا توجد طبقة من اللجنيت كثافتها ٢٥ سنتمترا قليلة الامتداد بين طبقات من الرمل ، وفى غرب قرية السبيخات توجد منه مقادير وافرة . وبالقرب من البقرين على بعد ٢٠٠ متر غربى صهريج المكلا يوجد اللجنيت فى طبقات التوائية ، وهى مقسمة إلى كتل يفصلها طفل أزرق ندى . وعلى بعد كيلومتر غرب كلبوت توجد تحت الطبقات الجيرية سلاسل من القشور المعدنية بها بقايا فحمية ، وطبقتان من اللجنيت . وعلى بعد كيلومترين غربا ، تظهر سلاسل اردوازية وعرقان من البقايا الفحمية . وعلى مقربة من قرية عدود توجد طبقة مكوّنة من الاردواز الفحمى ، وكثافتها من ٤٠ - ٥٠ سنتمترا ، وفوقها طبقة زرقاء بها عروق من الجبس . وفى وادى حويرة بالقرب من غيل باوزير توجد طبقة من اللجنيت مختلطا بالقار والجبس .

الطبقات المحتوية على الزيت : (Oil Shales)

فى نيفع وفى وادى عروس توجد بقاع بها صخور محتوية على الزيت، وقد اختبر نموذجاً منها الأستاذ لتل ، فوجدها مكوّنة من المواد الآتية :

٢ و ١ ٪ ماء

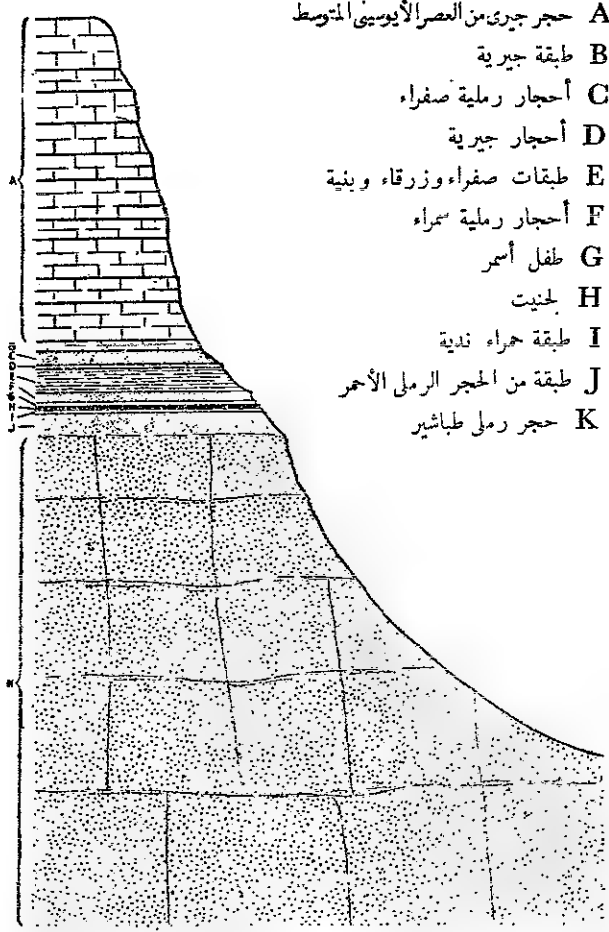
٨ و ١٤ ٪ كربونات

٢ و ٤ ٪ من المواد القابلة للاشتعال

٨ و ٠ ٪ كربون تقي

٧٩ ٪ رماد

واختبر عينة أخرى من وادى عروس فوجدها تحتوى على المواد الآتية :



- A حجر جيرى من العصر الأيوسينى المتوسط
B طبقة جيرية
C أحجار رملية صفراء
D أحجار جيرية
E طبقات صفراء وزرقاء وبنية
F أحجار رملية سمراء
G طفل أسمر
H بلخيت
I طبقة حمراء ندية
J طبقة من الحجر الرملى الأحمر
K حجر رملى طباشير

١٢ ١٠ ٨ ٦ ٤ ٢ ٠

طبقة بلخيتية
فى جبل كسعى

- ٦ و ٠ ٪ ماء
١٦ ٪ كربونات أو ثانى أكسيد الكربون
١٠ ٪ من المواد القابلة للاشتعال
٢ و ١ ٪ كربون
١ و ٧٢ ٪ رماد

وفي جبل الدعلية يسيل القار من الشقوق من الطبقة العليا التي تغطي اللجنيت :
وعلى بعد ١٢٠ كيلومترا من المكلا توجد صخرة كبيرة يسيل منها القار والأسفلت .
وفي الصدارة يوجد حجر جيري مختلط بطفل يدل على وجود الزيت .

معدن الراتينج (Resin)

يوجد هذا المعدن في طبقات اللجنيت في تلال العليا والسيخات وبين كلبوت
ومزينب ، ويختلف لونه بين أصفر باهت وأحمر قاتم ، وهو يوجد مع القار أو مع
قشور اللجنيت ، ولا يذوب في الكلوفورم .

الملح الصخري (Rock Salt)

يوجد منه جبل بأكمله في الصدارة بلورى اللون به بعض القار .

(Bitumen And Bituminous Sandstone)

القار والحجر الرملي القاري

يوجد في الصدارة ، وقد حلل عينة منه الأستاذ لتل ، فوجدها تحتوى على النسبة
المتوية الآتية :

٩٦ ٪ من القار القابل للذوبان

٧ و ٣ ٪ من الكربون

٣ ٪ من بقايا معدنية مكونة من بترول متأكسد

وحلل الأستاذ لتل عينة أخرى فوجدها كما يأتى :

١ و ١٩ ٪ من القار

٤ و ١ ٪ من الكربون

٥ و ٧٩ ٪ من بقايا معدنية ، وهذه تحتوى على :

٨ و ٨٠ ٪ من السليكا

٢ و ١٩ ٪ من أكاسيد الحديد والألومينوم والمنجنيز ، وهذا يدل على أن

هناك بترولاً .

نترات البوتاسيوم (Potassium Nitrate)

في الغرغر على مقربة من مزيب عند سفح جبل السكيدة توجد نترات البوتاسيوم تحت طبقة من الطفل الأحمر الضارب للسمرة ، كثافتها متر ، حلل عينة منها الأستاذ لتل (O. H. Little) فوجدها تحتوى على المواد الآتية :

٩٧ ٪ من نترات البوتاسيوم

٣ ٪ من الكبريت والكلور

والبدو هناك يستعينون به لعمل البارود ، وذلك بأن يأخذوا رطلين منه ويذبيهما في الماء ثم يعرضوهما لحرارة الشمس ليتبخرا ، ثم يستعملون المادة المتخلفة لعمل البارود

الهيماتيت (حجر الدم) (Hoematite)

يوجد هذا المعدن في رأس العقبة وفي جبل سقيفة مختلطا بالمليكا على هيئة عروق في الصخور النارية . وقد حلل عينة منه الأستاذ لتل (O. H. Little) فوجدها تحتوى على أكسيد الحديد والسليكا والكربون والنحاس ، ونسبة الحديد فيها ٧٦ و ٥٣ ٪ . واختبر عينة أخرى من جبل الدعلية فوجدها تحتوى على ٨ و ٤٤ ٪ من الحديد ، ٧ و ٥ ٪ من النحاس . وعينة ثالثة من جبل سقيفة فوجدها تحتوى على ٨٨ و ١٣ ٪ من الحديد و ٤٦ و ١ ٪ من النحاس .

المنجنيز (Manganese)

يوجد ثانی أكسيد المنجنيز في وادی اللقم ، وفي جبل يكور بالقرب من جزول مختلطا بالحديد ، وهو يحتوى على ٦ و ٧٤ ٪ من ثاني أكسيد المنجنيز .

الشب (Alum)

يوجد بكثرة في طبقات من اللجنيت متحللا ومتبلورا ذا ألوان ، ويحتوى على كبريتات الحديد والصودا والمغنسيوم

البوكسيت (Bauxite)

يوجد هذا المعدن في جبل عزنوف الديك . كثافته متر ، ولونه أبيض . وهو إما مسحوق وإما كتل هشة . وهو يحتوى على ٤٦ ٪ من الألومينا . وبه كميات من الحديد والجير والمغنسيوم والبوتاسيوم والسليكا .

الحجر الجيري والرخام (Limestone And Marble)

يوجد في جبل القارة وشرح باسليم رخام أبيض أو داكن مشوب بحمرة :

الجبس والانهيدريت (Gypsun And Anhydrite)

يوجد الجبس والانهيدريت في مناطق كثيرة أهمها في كنيمة .

حجر الصابون (Soapstone)

يوجد بكثرة في جبل القارة . ويوجد في طبقة محصورة بين طبقتين من الحجر الجيري ، وكثافته ٣٠ سنتمرا ، وعند استخراجها يكون ناعم الملمس ذا لون أخضر باهت ، وكلما مضت عليه مدة من الزمن زادت صلابته وبهت لونه ، وإذا وضع في الماء يذوب ويتحلل ويزداد حجمه إلى الضعف . وهو يباع في سوق المكلا كمطهر وقد حلل الأستاذ لتل عينة منه فوجده يحتوى على النسب المتوية الآتية :

٦ و ٥٣ ٪ من السليكا

٦ و ٢١ ٪ من الألومينا

٦ و ١ ٪ من أكسيد الحديد

٤ و ٢ ٪ جير

٨٧ و ١ ٪ منجنيز

٩٣ و ١٨ ٪ مواد عضوية وماء

ويوجد هذا المعدن أيضا في جبل كسعى تحت العجينة ، ويمتاز عن الأول

بصفات ، فهو لين ، وعند ما يحفّ يصبح ناعم الملمس ، وإذا أمرته على قماش أو ورق لونه ، ويتحلل ببطء في الماء دون أن يزيد حجمه .

التاريخ الجيولوجي (Geological History)

لخص العالم الجيولوجي الأستاذ لتل (O. H. Little) تاريخ إقليم الشواطئ الجيولوجي في صفحتين بالإنجليزية ، وهذه خلاصة الترجمة :

« ترجع الصخور التي لا تحتوى على حفريات إلى العصر الأركي ، وكانت تكون السطح ، ثم نحتت وتحولت إلى سهول في العصر الجوراسي القديم ، ثم طغى عليها الماء تدريجيا ، فخلف عاها طبقة من الحجر الرملي والأصداف قبل أن تتكون الصخور الجيرية في العصر الجوراسي الوسيط ، وإلى شرق حصن باقردان تحتوى هذه الصخور الجيرية على حفريات حيوانية تعيش في البحار الضحلة . ولهذا يظن أن الحد الشرقي للمسافة التي طغى عليها البحر كان عند جبل الدعلية ، وإلى شرق هذه المنطقة توجد طبقة صغيرة ربما كانت في العصر الجوراسي ، وبعض صخور جيرية في وادي ريزبات ، ولا يعرف الحد الشمالي للمساحة التي طغى عليها البحر لعدم وجود حفريات جوراسية جنوب العيب الواقع قرب كنيّة ، وفي هذا العيب توجد طبقات من العصر الطباشيري القديم . ولما كانت الصخور النارية معدومة في هذه المنطقة ، فمن المستحيل تحديد هذا البحر الجوراسي من الشمال ، وإذا كنت لم أجد ما يدل على أنه كان يمتد شمال جبل مكب أو الكار ، فإنني استنتجت أن عمقه أخذ يزداد نحو الجنوب والجنوب الغربي حتى نيفا ووادي عروس . ويدل تناقض كثافة الطبقات التي تقع بين الحجر الجيري من العصر الطباشيري القديم ، وبين الصخور النارية كلما اتجهنا شمالا على أن البحر أخذ ينحسر في العصر الجوراسي والطباشيري القديم ، بينما أخذت الصخور الجيرية والجوراسية الصلدة ترسب على كل السطح ، ثم أخذ اللجنيت يتكوّن في مستنقعات في العصر الطباشيري الحديث

أو الأيوسين القديم ، ثم تلت ذلك فترة أخذ البحر يتذبذب فيها ، ثم غمر المنطقة كلها بماء عميق رسبت فيه الصخور الجيرية الأيوسينية ، وأخذ البحر يعلو تدريجاً ، ثم أخذ ينحسر ، وفي فترة تكونت فيها الصخور الجيرية المحتوية على الماء في عصر الأوليجوسين ، ثم أخذ يتذبذب ، وتحصل عدة التواءات بسيطة في عصر الأوليجوسين وطوال عصر الميوسين . وربما كان تكوين السلسلة الجبلية الرئيسية الموازية للساحل راجعاً إلى هذا العصر ، وفيه تكونت برك أرسيت فيها الصخور الجبسية ، ثم تلت ذلك مدة من الارتفاع والانحسار والتذبذب رجعت فيها هذه البرك ، فتكونت منها منخفضات جزول وجول باحوة وكينية ، وفي عصر البليوسين ظهرت العيوب . وإلى الجنوب الشرقى من الالتواء تكونت عدة أحواض ، أحدها تقع فيه نيفع وميفع ، والآخر يمتد في فوة مخترقاً المكلا إلى الحرشيات ، وثالث صغير حول الريشة وفي عصر البليوسين ولو أن الشواهد على ما حدث فيه قليلة ، حصلت حركات هامة في القشرة الأرضية ، فتكونت التواءات أخرى عمودية على الالتواءات القديمة ، وظهرت عيوب ، ثم بدأت السيول تنحت هذه المرتفعات وترسب ما حملته منها في بحيرات صغيرة . ومنذ عصر البليوسين أخذت الأرض ترتفع مكونة شاطئ المكلا المرتفع ، ومن رأس الكلب إلى رأس المكلا يتجه الشاطئ اتجاهها شمالاً شرقياً ، وأعلى نقطة فيه الآن عبارة عن هضبة منقطعة يظهر أنها تكونت من التواء مسطح في مواز للشاطئ مخترقاً ظلم باطالب وجبل عزنوف الديك والقار وجبل الجوف وجبل محطة ، وقد نحتت خطوط تقسيم المياه الحالية نحو الشمال الشرقى والجنوب الغربى بواسطة مجار مائية ، ويجرى النهر الآن في الأخدود الوحيد .

وهذا يدل على أنه إما أنه كان موجوداً قبل تكوين المرتفع ، أو أن هذا كان في الجنوب الشرقى من المرتفع أثر منابع نهر آخر كان على الجانب الآخر للمرتفع ، ويرجح حدود المرتفع الذى يتصل به من وادى مزرب وبين كينية ويوان كان يجرى في واد قديم ونحت فيه خانقاً يبلغ عمقه الآن من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ متر ، واتساعه من ١٠٠ إلى ٢٠٠ متر . وقبل أن يظهر العيب الموجود الآن جنوب كينية كان في مجراه مرتفعاً عنه الآن في الصخور الجيرية ، ومن المحتمل أنه كان يسير رأساً من كينية عبر

جبل نعمان وجول باحوّة ، ولما كانت الطبقات البليوسينية موجودة في هذا العيب ، فإذا كان هذا الفرض صحيحا فإن الفرع لم يتحوّل إلى وادى مزرب حتى إلى عصر البليوسين الحديث .

وفي عصر الميوسين حصلت عدة التواءات مصحوبة بعيوب ، فأخذت الصخور الرملية والجيرية ترتفع مكوّنة هضابا ، ولكنّ أهمّ الحركات الأرضية حدثت في عصر البليوسين مكوّنة معظم الالتواءات والعيوب الحالية ، ومنها ما ينحدر تدريجيا إلى البحر ، ومعظمها يتجه اتجاها شرقيا غربيا ، وأقلها يتجه نحو الجنوب الشرقي ، وقد نجمت المرتفعات والكتل المنعزلة عن تعرية الهضبة ، ويظهر أن جبل شحورة قد نتج عن عيوب مدرجة ، ولكنى لست متحققا من ذلك وقد وجدت طبقات بلخيتية في عيب عند سفح المرتفع في تلا العليا وفي السيخات ، ولكن هذا العيب لم يمتد إلى الغرب على طول سفح جبل شحورة ، لأنه من المحتمل أن عيبا آخر تقاطع معه كان يسير في النهاية الغربية للجبل شرح بإسليم إلى غرب الحوطة ، وربما كان رأس قرن الفيل ناجما عن هذا العيب الآخر الذي كوّن حوضا رسبت فيه الصخور الميوسينية حول الديشة ، وينحدر السهل المكوّن من الصخور النارية عند رأس العقبة نحو الجنوب الشرقي ، وقد ظهرت هذه العيوب في نهاية عصر الأيوسين ، لأن طبقات عصر الأوليجوسين والميوسين قد رسبت حول المرتفع ، وعندما ارتفعت الأرض ثانية في عصر الميوسين الحديث أو البليوسين القديم نحت وادى يوان في هذه الطبقات الميوسينية والأوليجوسينية » اه .

نظرة عامة في تاريخ حضرموت قبل الإسلام

قديمًا كانت حضرموت تسمى الأحقاف (وأذكّر أختا عادٍ إذْ أنذَرَ قَوْمَهُ
بالأَحْقَافِ) . وإنما سميت حضرموت لسبب ذكره بعض المؤرخين ؛ ذلك أن عامر
ابن قحطان أول من نزل الأحقاف ، فكان إذا حضر حرباً أكثر من القتل ، فصاروا
يقولون عند حضوره : حضرموت . ثم صار ذلك عليه لقباً ، وصاروا يقولون
للأرض التي بها قبيلته : هذه أرض حضرموت ، ثم أطلق على البلاد نفسها :
وفي التوراة اسم حضرموت : حاضرميت . ولقد كانت حضرموت موطن عاد
وأقباة التابعة وملوك حمير وكندة .

عاد

هم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام ، وكان أبوهم أول من ملك في العرب
وطال عمره وكثر ولده ، ولما مات ملك بعده أبناؤه الثلاثة : شدّاد وهو الذي
وطى الممالك ، واستولى على الشام والهند والعراق ، وبعده شديد ، وبعده إرم ،
وهو الذي بنى إرم كما ذكره ابن سعد عن البيهقي ؛ وقيل شدّاد باني إرم . قال
بعض المؤرخين : إنه لما سمع إرم أو شدّاد بالجنة وما فيها من النعيم وقصور الذهب
والفضة بنى مدينة إرم في حضرموت ، وقيل في صحارى عدن .

وشيدها بصخور الذهب وأساطين الياقوت والزبرجد والعقيق ، وجعل ترابها
المسك والزعفران ، وأجرى من تحتها السواقي والأنهار ، ونصب على حافة تلك
السواقي والأنهار أشجاراً من الذهب ثمرها اليواقيت والجواهر ، وسورها بسور رفيع
من الذهب والفضة . قيل إنه مكث في بنائها مدة طويلة ، ثم بعث الله إليه هوداً عليه
السلام فلم يؤمن به ، وأنذره بالعذاب الأليم ، فلم يبال بتهديده ولا بوعيده ، ولم يرتدع

عما كان عليه من الطغيان والكبرياء ، فخرج في ثلاثمائة ألف رجل من حرسه ومواليه وغيرهم وسار إلى جنته التي بناها ، وخلف على ملكه ابنه مرثد ، وكان مرثد فيما يقال مؤمنا يهود عليه السلام ؛ فلما قرب شدّاد من المدينة جاءت صبيحة من السماء ، فمات هو ورجاله ، وساحت المدينة في الأرض فلم يدخلها أحد ؛ وقيل دخلها رجل يقال له عبد الله بن قلابة في أيام معاوية بن أبي سفيان ، قال : إنه خرج من صنعاء باحثا عن إبل له ضلت ، فأفضى به السير إلى مدينة صفتها كما ذكرنا آنفا ، وأخذ منها شيئا من المسك والكافور والياقوت . وذهب إلى معاوية بالشام وأخبره بذلك . والحكاية طويلة وليس لها حظّ من الصحة ، وإنما هي من الأخبار المنمقة المصطنعة . ويقال إنهم وقفوا على حفيرة بحضرموت ، فاذا بيت في الجبل منقور ١٠٥ ذراع في ٤٠ ، وفي صدره سريران عظيمان من ذهب على أحدهما رجل عظيم الجسم ، وعند رأسه لوح مكتوب فيه :

اعتبر يا أيها المغرور بالعمر المديد
أنا شدّاد بن عاد صاحب الحصن المشيد
وأخو القوّة والبأس وذو الملك الحشيد
دان أهل الأرض طرّا لى من خوف وعيى
فأتى هود وكنّا فى ضلال قبل هود
فدعانا لو أجبنا ه إلى الأمر الرشيد
فعصيناه وناديّنا ألا هل من عيى
فأتتنا صبيحة تهوى من الأفق البعيد

وهذه القصة أيضا غير صحيحة ، ويقول ياقوت إنها من أخبار القصاص المنمقة وأوضاعهم المزوّقة . ويقول الزمخشري إن إرم بلد منه الاسكندرية .

وقال آخرون : معنى إرم الهالك ، فقد روى عن ابن عباس (ألم تركيف فعل ربك بعاد إرم) يعنى بالإرم الهالك . وعن عبيد قال : سمعت الضحّاك يقول في قوله (بعاد إرم) يعنى الهالك ، ألا ترى أنك تقول : إرم بنو فلان : أى هلكوا . وقال الطبرى بعد إيراد الخلافات : « وأشبه الأقوال فيه بالصواب عندى ، أنها اسم قبيلة

من عاد ، ولذلك جاء في القرآن بترك إضافة عاد إليها ، وترك إجرائها ، كما يقال : ألم تر ما فعل ربك بتميم نهشل ، وهي قبيلة ، فترك إجرائها لذلك ، وهي في موضع خفض بالبرد على تميم ، ولو كانت إرم اسم بلدة أو اسم جدّ لعاد ، لجاءت القراءة بإضافة عاد إليها وترك إجرائها ، كما يقال : هذا عمرو زبيد وحاتم طيٍّ وأعشى همدان ، ولكنها اسم قبيلة منها فيما أرى كما قال قتادة ، والله أعلم .

وقوله تعالى (ذات العماد) اختلف فيه ، فقال بعضهم : معناه ذات الطول ، والعرب تقول للطويل : هذا رجل معمد ؛ وقيل معنى ذات العماد أنهم كانوا أهل عمد ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى الكلاء حيث كان . وقال الطبري : « وأشبه الأقوال في ذلك ما دلّ عليه ظاهر التنزيل قول من قال : عنى بذلك أنهم كانوا أهل عمود سيارة ، لأن المعروف في كلام العرب من العماد ما عمد به الخيام من الخشب والسوارى التي يحمل عليها البناء ، ولا يعلم بناء كان لهم بالعماد بخبر صحيح . وقال : وأما قوله (لم يخلق مثلها) أى في البطش والقوة . نقول هذا هو الصحيح ، فإن عاداً كانت على جانب عظيم من العظمة والكبرياء والجبروت لم يخلق في العالم في عصرهم شعب مثلهم في القوة والكبرياء والسلطان ، ولما دعاهم هود عليه السلام لعبادة الله لم يتبعوه وأنذرهم بالعذاب وحذّرهم وخوفهم زوال ملكهم ، فلم يرتدعوا عما كانوا عليه لغرورهم وكبريائهم ، فأرسلت الصيحة من السماء (غضب الله) فأهلكتهم وأبادت قوتهم وعظمتهم » ويقول ابن خلدون الحضرمي في تاريخه : والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم ، وإنما هذا من خرافات القصاص ، وإنما ينقله ضعفاء المفسرين ، وإرم المذكورة في قوله تعالى « إرم ذات العماد » القبيلة لا البلد .

الأقيال

كانت حضرموت منذ العصور الواغلة في القدم تنقسم إلى إمارات صغرى ، أو أقيال (جمع قيل) والقيل هو الأمير يسكن حصناً أو قلعة ، ومن حوله بيوت الأنصار والأعوان والحاشية والخدم ، وكذلك الشأن في اليمن ، فانها كانت تنقسم

إلى محافد ، والمحفد مجموعة من البيوت أو القرى المتجاورة يتولى شئونها أمير أو قيل ، وكان هؤلاء الأقبال أشبه بالأشراف في عهد الإقطاع في القرون الوسطى بأوروبا . وفي حضرموت أقبال كثيرون ، ولكن أشهرهم كان في دَمُون وشبام وهينن والعروض وعندل والشحر ، ويعرف أصحاب المحافد بالأذواء جمع ذو أى صاحب . وقد جمع الحميري أسماءهم في قصيدته الآتية :

أين الثامنة الملوك وملكهم	ذلوا لصرف الدهر بعد جماح
ذو ثعلبان وذو خليل ثم ذو	شجر وذو جدن وذو صرواح
أو ذو مغار بعد أو ذو جرفز	ولقد محا ذا عثكلان ماح
أو ذومرائد جدنا القيل ابن ذى	شجر أبو الأذواء رحب الساح
وبنوه ذو فين وذو سفر وذو	عمران أهل مكارم وسلاح
والقيل ذو ربيان من أبنائه	راح الحمام إليه بالرواح
أو أين ذو الرحين أو ذو يرحم	سقى بكأس للمنون ذباح
أم أين ذو بهر وذو يزن وذو	نوش وذو نوح وذو الأنواح
أم أين ذو فيقان أو ذو أصبح	لم ينج بالإساء والإصباح
أم أين ذو الشعين أصبح صدعه	لم يلتئم لثقف الأقداح
أو ذو حوال حيل دون مراره	أو ذو رعين لم يفز بفلاح
أم أين ذو غمدان أو ذو فائش	

أو ذو الكناس وذو الكلاع ويحصب

أضحوا وهم للنائبات أضحى

أم أين ذو فنان أو ذو أقرع	أو ذو الجناح هزير كل كفاح
أو ذو العبير وذو درانج خانه	دهر بعيد اليسر كالذلاح
أم أين ذو بينين أم ذو أنمر	وبنو شراجيل وآل شراح
أم أين ذو وثاب وذو هكر وذو	نمر وذو ضر وذو المسراح
أم أين ذو غيمان أو ذو شودن الـ	الاهى ببيض في النساء ملاح
أم أين ذو شهران أو ذو ماور	أضحت ديارهم بلا قداح

أم أين ذو فهد وشمال ابنه فلقد عفاهم دهرهم بمتاح
أم أين ذو شحط وذو تبع معا أو ذو ملاح لهو خير ملاح
أم أين ذو أوسان أو ذو ماذن أم أين ذو التيجان والأبراح
وعياهل من حضر موت من بني أجماد ذي الأشبال آل صباح
والغر من جردن وابنا مرة وبني شبيب والألى من ناح
وبني الهزبل وآل فهد منهم من كل هش بالندی مرتاح
وكانوا يتغازون ويتنازعون ، يهجم القوي على من دونه فيتغلب عليه ويستولي
على أملاكه ، فإذا امتدت سلطته واتسع نفوذه وطار صيته ، كوّن مملكة وسمى نفسه ملكا .
وعلى هذه الكيفية تكوّنت الممالك ، ونشأت الدول في جزيرة العرب .

الدولة الحميرية

HOMERITAE

من سنة ١١٥ ق م - ٥٢٥ م

كان الحميريون يقيمون في ريدان (ظفار) ولما ضعفت دولة السبائين Sabaei تغلب عليها الحميريون واستولوا عليها ، وحكموا ريدان وسبأ معا . ثم طمع الحميريون في حضرموت ، فاستولوا عليها في عهد شمر يرعش .

وتنقسم الدولة الحميرية إلى دورين : فأصحاب الدور الأول كانوا يحكمون ريدان وسبأ ، وهؤلاء لا يهمننا ذكرهم . والثاني : وعددهم ١٣ ملكا حكموا سبأ وحضرموت وظفار التي صارت وقتئذ تابعة لحضرموت ومن أعمالها .

وهذه أسماؤهم ومدة حكمهم من سنة ٢٧٥ - ٥٢٥ م :

اسم الملك	مدة الحكم
شمر يرعش	٢٥
ذوالقرنين أو افريقس	٢٠
عمرو زوج بلقيس	١
بلقيس وتسمى الفارعة	١٥
الهدهاد أخوها	٢٩
ملكيكرب بوينعم	١١
أبو كرب أسعد بن ملكيكرب	٣٥
حسان بن أسعد	٥
شرحبيل يعفر بن أسعد	٣٠
شرحبيل ينوف	١٥
معدى كرب ينعم وابنه لحيعة	٢٥

اسم الملك	مدة الحكم
مرثد اللات ينوف	٢٠
ذو نواس	١٠

هذا ما ذكره اليونانيون . وتأيد بعضه بما وجد مئثوشا على بعض الآثار ، ولكن تعدادهم هذا لم يكن مقطوعا به : فلا ينهض حجة في الموضوع ، إذ ربما كان هناك أسماء ملوك آخرين لم يقفوا عليها في الآثار التي لا تزال مدونة في الرمال ، وفي بطون الأودية والجبال . أما العرب فقد خالفوا ما ذكره هؤلاء من بعض الوجوه : فقالوا : إن عدد ملوك حمير الذين حكموا حضرموت ٢٦ ، ومدة حكمهم ١٧٠٠ . وهذه أسماؤهم ومدة حكمهم :

اسم الملك	مدة الحكم	اسم الملك	مدة الحكم
الحارث الرائش	١٢٥	أبرهة ذو المنار	١٨٣
أفريقس بن أبرهة	١٦٤	حسان بن تبع	٧٠
العبد ذو الاذعار	٢٥	عمرو بن تبع	٩٣
هداد بن شراحيل	٧٥	عبيد كلال	١٤
بلقيس بنت هداد	٢٠	تبع بن حسان	٧٨
ناشر ينعم	٨٥	مرثد بن عبيد	٤١
شمر يرعش	٣٧	وليعة بن مرثد	٤٧
أبو مالك	٥٥	أبرهة بن الصباح	١٠
تبع بن الأقرن	٥٣	أصبهان بن محرت	١٥
ذو جيشان	٧٠	حسان بن عمرو بن تبع	٥٧
الأقرن بن أبي مالك	١٦٣	ذو شاتر	٧٢
كليكرب	٣٥	ذو نواس	٢٠
أسعد أبو كرب	١٢٠	ذو جدن	٨

(١) بلغ عدد الآثار التي اكتشفت من جنوب بلاد العرب نحو ١٥٦٠ نقشا ، وأشهر أولئك المكتشفين ادورد غلازر ، ويوسف هاليق ، ويوليوس أويتن ، وتوماس ارنو .

ومما دوتته التواريخ ، وحفظته بطون الأوراق ، أن دولة حمير دولة قوة وفتح وحضارة ومدينة ، فشمر أبو كرب أول ملك حميرى حضرمى ، اخترق بجيشه شمال الجزيرة العربية ، وغزا العراق وفارس ، واحتل مدينة الصغد وراء جيحون ، وهناك بنى مدينة شمر كنت التى عربت فقبل سمرقند .

ومن مشاهيرهم إفريقس ، فقد اخترق شمال أفريقية ، وفتح المغرب ، ونقل قبائل عربية إليها . ومنهم أسعد أبو كرب ، وطى أرض أذربيجان واحتلها ، وحارب الترك ، وبعث ابنه حسانا إلى الصغد ، وابنه جعفرا إلى القسطنطينية والروم ، فقدّم له أهل القسطنطينية الجزية ، وسار إلى دومة وحصرها ، فأصيب بعض عسكره بالطاعون ، فاستضعفهم الروم وحاربوهم ، فقتلوه جميعا . وأرسل ابن أخيه شمر ذا الجناح إلى الفرس ، فهزمهم ، وغزا الصين ، فوجد حسانا قد سبقه إليها ، فغلبا الصين ، وانصرفا بما معهما من الغنائم العظيمة . وقيل إن قوما من الحميريين أعجبته بلاد الصين فاستوطنوها ، واندمجوا في أهلها ، وتخلقوا بأخلاقهم . وفي سنة ٣٤٥ م غزا الأحباش الحميريين ، واستولوا على اليمن وحكموها سنة ٣٧٤ ، ولكن حضرموت لم تدخل في حكمهم ، ولم تخضع لسلطتهم ، سواء في أيام العلى اسكندى ، أو في عهد ولديه عزيزاناس وسازاناس ، فهى حافظت على استقلالها . وفي أواخر سنة ٣٧٤ م استردّ اليمن ملكي كرب ، وفي القرن السادس غزا نجران ذونواس ، ويسميه اليونانيون دميانوس ، وكانت النصرانية قد انتشرت فيها ، وكان هو متعصبا لليهودية فاستولى عليها وعرض على أهلها اليهودية فامتنعوا ، فوضعهم في أخاديد وأحرقهم ، وهدم بيعهم ، ولما بلغ ذلك النجاشى ملك الحبشة أرسل سبعين ألفا تحت قيادة أرباط إلى اليمن ، وأنحنوا في القتل ، وفرّ ذونواس خوفا من الأسر . وأقحم فرسه البحر ، ففضى به فرسه وغرق ، واحتلّ أرباط اليمن ، وهدم الحصون ، وبعث بالسبي إلى ملك الحبشة رجالا ونساء وأطفالا ، وكانت مدة حكمهم ٧٤ سنة ، منها ٢٠ سنة لأرباط و ٢٣ لأبرهة و ١٩ ليكسوم و ١٢ لمسروق ، وفي كل عهود هؤلاء الملوك

حافظت حضرموت على استقلالها ولم تخضع لهم في أى شأن من شئونها الداخلية أو الخارجية ، كما حافظت على استقلالها في عهد استيلاء الفرس على اليمن ١ .

نظام الدولة الحميرية السياسى والاجتماعى

كان نظام حكم الحميريين في حضرموت يخالف في بعض نواحيه نظام حكمهم في اليمن ، فالحكومة في اليمن وراثية ، تنتقل إلى الأبناء أو الإخوة ، أما في حضرموت فإن الملك ينتقل إلى أول مولود من الأشراف والنبلأ (العائلة الملكية) ولد في أثناء حكمه ، فعند الاحتفال بتولية الملك يرفع إليه خاصته قائمة بأسماء النبيلات الحوامل ، فيعين الملك لكل منهن امرأة تقوم بمراقبتها وخدمتها حتى تضع ، فأول نبيلة تلد غلاما يأمر الملك بمن يعنى بتربيته ويقوم بتربيته وإعداده للملك .

والملك عندهم مطلق التصرف ، ولكن في حدود العدل والرحمة ، والشعب طوع أمره ورهن إشارته ، وليس للسجون والعقوبات قوانين مكتوبة ، ولم يكن للمسجونين مدة معلومة ، فالملك هو المنتصرف ، يسجن ويسرح ويقتل ويعذب متى شاء ، وقد يفدى المسجون نفسه بالمال :

ومن عادات الملك أنه يخلق لحيته وشاربه ، ويضفر شعوره جدائل يرسلها خلفه وعلى كتفيه ، وحين ينزل من قصره يركب فرسا أو مركبة تجرّها الخيول ، وفي صنعاء تجرّ المركبات الأفيال التي أوى بها الأحباش أثناء احتلالهم اليمن ، ولباسه الرسمى مئزر محوك بالذهب ، وأساور ثمينة يضعها على ذراعيه ، ويحمل بيده رحمين تحفّ به حاشيته ، مدججين بالسلاح ، يتغنون بتعظيمه وذكر فضائله .

وكان الملوك ينقشون على النقود صورهم وأسماءهم وأسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند (الحروف الحميرية) وأحيانا ينقشون صورة الثور أو الصقر أو البومة ؛ وفي المتحف الأدبي بفينا توجد مجموعة قيمة من تلك النقود .

(١) كان مسروق الحبشى جبارا ظالما ، فاشتكى أهل اليمن إلى سيف بن ذى يزن الحميرى ما يجذونه من تحكم الأحباش فيهم ، فحاربهم واستخلص البلاد من أيديهم بمساعدة كسرى أنوشروان ، وأثنى في القتل حتى لم يبق منهم في اليمن سوى مائة نفس اتخذهم عبيدا له ، وفي ذات يوم خرج سيف بن ذى يزن إلى الصحراء متصيذا ، فقتلوه بجراهم وهربوا ، فأرسل كسرى وهرز بن كاهجار حاكما على اليمن من قبله ، فبقيت خاضعة لفراس إلى أن افتتحها المسلمون سنة ٥١٣ هـ .

وينقسم الشعب إلى ثلاث طوائف :

- ١ - حملة السلاح ، وهؤلاء يحمون البلاد ، ويحفظون الأمن ، ويجرسون القوافل ، ومنهم تتكوّن حاشية الملك وأعوانه وحرسه .
- ٢ - الزراع ، وهؤلاء عليهم فلاحه الأرض وزراعتها ، وحفر الترع ، وإقامة السدود لحفظ السيول وتوزيعها على المزارع والحقول والحدائق والبساتين .
- ٣ - التجار وأهل الحرف ومن يلحق بهم كالعمال .

ازدهار التجارة في عهدهم

الشحر

بالرغم عن اشتغال الدولة الحميرية بالحروب والفتح ، واهتمامهم بالدفاع عن بلادهم ، والذود عن حوضهم من اعتداء المعتدين وتطاول الطامعين ، فقد وجهوا أقصى عنايتهم ، ومنتهى جهدهم لترقية التجارة ، وبذلوا كلّ مقدور لتنشيط العلائق التجارية ، وتوثيق الروابط الاقتصادية بينهم وبين الهند وسواحل أفريقية الشرقية ، وبينهم وبين نجد والحجاز والشام ومصر ، وكانت مدينة الشحر أعظم ميناء وأكبر مركز تجارى فى جنوب الجزيرة العربية ، تأتيا السفن من الهند والخليج الفارسى ، ومن سواحل أفريقيا الشرقية ، ومن مصر مشحونة بأصناف السلع وأنواع المتاجر ، وكان أغلب هذه السفن للحضرميين ، وهم بأنفسهم كانوا يتولون قيادتها وتسييرها فى عباب المحيط الهندى والخليج الفارسى والبحر الأحمر ، كانوا يأتون من الهند بالدرّ والياقوت والزبرجد والعاج والأطياب وخشب الأبنوس والتوابل والقطن والقصدير . ومن سواحل أفريقيا بالذهب والعاج والعطور وخشب الأبنوس وريش النعام . ومن البحرين باللؤلؤ ، وكانت مدينة شباه (شبام)^١ ويسميا اليونانيون

(١) كان يسكنها بنو فهد . قال الهمداني : فلما احتربت حمير ومنحج خرج أهل شبوة (مدينة حمير بين بيهان وحضرموت) من شبوة فسكنوا حضرموت وبهم سميت شبام ، وكان الأصل فى ذلك شباه ، فأبدلت الميم من الهاء .

Sabotta تبعث إلى الشحر حاصلات حضرموت الداخلية كالبخور واللبان والمر واللالد وما إلى ذلك .

قال بطليموس : إن هذه الأصناف وغيرها من واردات الهند وسواحل أفريقيا الشرقية تحملها القوافل من حضرموت مختربة رمال الدهناء إلى دوان ، ثم تسير غربا إلى نجد ثم إلى الحجاز ، ومن هناك يستلمها المديانيون والأنباط ويذهبون بها إلى مدائن صالح ، فإلى بتر^١ ومن بتر تسير إما إلى مصر أو إلى فلسطين وإلى صور وغزة وغيرها من شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وكان القريون^٢ وغيرهم من التجار الحضرميين يفضلون حمل متاجرهم على القوافل بالبر^٣ لما في البحر الأحمر من الأنواء وأخطار القرصان ، ولكن لما تولى عرش مصر سبتى الأول من العائلة التاسعة عشرة ، وقيل ابنه سيزوستريس Sésostris وهورعمسيس الثانى ميامون فرعون مصر ، احتفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر ، وأرسل سفنه التجارية إلى الشحر وغيرها من موانئ جنوب جزيرة العرب ، فاتجهت أنظار الحضرميين إلى إرسال متاجرهم بطريق البحر الأحمر ، فارتقت الملاحة وانتعشت الأسواق الحضرمية وزادت التجارة نشاطا وحركة ، فتضاعفت المكاسب وعظمت الأرباح واتسعت ثرواتهم اتساعا ما كانوا يحلمون بمثله من قبل ، فقد كانت تكاليف حمل المتاجر بالبر^٤ أضعااف تكاليفها بالبحر لبعد المسافة ، ولأن الخفراء كانوا يأخذون نصف الأرباح ، ولما مات سبتى أوسيزوستريس أهملت القناة ، فتعطلت ولم يهتم المصريون بالأسفار ، فبطلت الملاحة المصرية وانكشفت الملاحة الحضرمية ، وتقلصت مواصلاتهم في البحر الأحمر ، لكن لم تطل المدة على تلك الحال حتى نهض ملك أورشليم سليمان ، وأنشأ السفن في عسيون جابر Asion Gaber على مقربة من أيلة (العقبة) من بلاد أدوم « ايدوميا » ، وقد ورد ذلك في التوراة « كتاب الملوك الأول سفر ٤ ، إصحاح ٣٣ ، عدد ٣٥ ، ٣٦ » . وقيل إنه اتحد على بناء السفن مع حيرام^٥ حيث أمده هذا بالنجارين

(١) هي عاصمة مملكة أيدوم القديمة وإحدى عجائب الآثار ، متقورة في الصخور ، واقعة على الحد الشمالى الغربى لصحراء العرب بين خليج أيلة (العقبة) والبحر الميت .

(٢) انظر صفحة ٥٢ من هذا الجزء ، وسيأتى الكلام عليهم في الجزء الثانى .

(٣) هو ملك صور في عهد الملك سليمان ، ويسمى أيضا حيروم أو حورام ورد ذكره في التوراة (إصحاح ٨ عدد ١٧ من الأخبار) قال : حينئذ ذهب سليمان إلى عسيون جابر وإلى أيلة على شاطئ البحر -

والعمال ، ووافاه بالمقادير الوافرة من أجود الخشب وأغلاه لبناء السفن ، ثم أرسل السفن تجرى في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج الفارسي وترسو في ميناءى الشحر وزفر (ظفار) وغيرهما من موانئ جنوب جزيرة العرب وسواحل أفريقيا والهند الغربية والخليج الفارسي ، فأتجهت أنظار الحضرميين إلى إرسال متاجرهم بالبحر ، فعادت ملاحتهم إلى نشاطها الأول وانتعشت أسواقهم من جديد .

ولما توفي سليمان ملك بني إسرائيل لم يهتم حيرام ملك صور بالأسفار ، فعتطلت الملاحة وعاد الحضرميون إلى القوافل . ولقد كوّن الحضرميون جالية كبيرة في الهند في جندروزيا الواقعة بين جبل كربيل ومصبّ نهر السند ، وبنوا هناك مدنا ، وأنشأوا أسطولا يغدو ويروح بين الهند وجنوب جزيرة العرب بأصناف المتاجر وأنواع البضائع ، وكوّنوا هناك سلطة دونها كل سلطة ، ونفوذاً دونه كل نفوذ ، وقبضوا على زمام التجارة ، واحتكروا غلات البلاد .

قال العلامة المسيو جليان Mr. Guillaïn في كتابه :

“ Documents sur l'Histoire, la Geographie et le Commerce de l'Afrique Orientale ”

« وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية في أفريقيا الشرقية » :

« قبض العرب منذ أقدم العصور على زمام التجارة البحرية وبخاصة في الشرق ، فكانت سفنهم هي الوحيدة التي تجرى في المحيط الهندي ، وبخاصة فيما بين بلادهم والهند التي كانت لهم جالية كبيرة على سواحلها قرب نهر السند هي التي أسماها الهنود « عربتو Arabitoe » أى العرب . ولما أرسل إسكندر المقدوني قائد أسطوله نيارك Néarque لاستكشاف بحر الهند ، وجد بسواحل جندورزيا آثاراً دالة على نفوذ العرب من مدن عربية وأساطيل عربية ، وكان الربان الذي أرشده في ذلك البحر عربياً . »

في أرض أدوم ، وأرسل له بيد عبيده سفناً وعبيدا يعرفون البحر ، فأثوا مع عبيد سليمان إلى أوفير - زفر (ظفار) وأخذوا هناك ٤٥٠ وزنة ذهب وأثوا بها إلى الملك سليمان .

حضارة حضرموت

بلغ الحضرميون في المدنية والحضارة مبلغا ليس له في عهدهم مثيل ، فقد بنوا القصور الشاهقة وعمرؤا المدن الواسعة ، ووضعوا المياكل والتماثيل واحترفوا الترع والسواقي ، وأنشأوا السدود الضخمة يحجزون بها المياه ويسقون المرتفعات من الأرض والمنخفضات منها ، وعبّدوا الشوارع واغترسوا الحدائق والبساتين ، كانوا في ترف ونعيم لباسهم من أفخر الأنسجة ، ورياشهم من الحرير ، وآتيهم محلاة بالذهب ، وأثاثهم مزين بالذهب والفضة والجواهر .

قال العلامة لنورمان نقلا عن أغاثر سيدس في الجزء الثالث من كتابه : „ Manuel de l'Histoire Ancienne de l'Orient “ « خلاصة تاريخ الشرق القديم » : إن قصورهم قائمة على الأساطين المحلاة بالذهب ، وإنهم يعلقون على أبواب منازلهم صحائف الذهب المرصعة بالجواهر ، تحيط منازلهم بساتين غناء ولديهم الموائد والأسرة من الفضة والرياش من أفخر الأنسجة ، إلى آخر ما هناك مما يفوق التصديق ، ومما لاشك فيه أن سبب غناهم هذا اتجارهم بحاصلات الهند من العقاقير وما إليها ، وبغلال سواحل أفريقية الشرقية وإلى الخليج الفارسي وإلى مصر .

قال العلامة المسيو جليان Mr. Guillaïn في كتابه : „ Documents Sur L'Histoire, la Geographie et le Commerce de l'Afrique Orientale „

« وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية في أفريقيا الشرقية » : « إن العرب - كانت بلادهم مركز التجارة بين الشرق والغرب ، وهم الذين اكتشفوا لأول مرة تلك البلاد الكائنة جنوبي بوغاز باب المندب والسفال ، ثم إن غيرهم من الأمم لم تصل إلى هذه الأراضي إلا بعدهم وبواسطتهم ، فالأمم الأخرى مثل الإسرائيليين وأهل صور والمصريين واليونان الرومان وأخيرا البرتغاليين لم يكن

وصولهم إلى تلك الأراضي إلا أمرا مؤقتا ، أما العرب فهم الذين تواصل وجودهم بها ، كما كانوا هم السابقين لغيرهم إليها » .

المعارف في عهد الحميريين

كان للحضارم معرفة تامة بمواقع النجوم ، وأوقات مطالعها ومغاريها ، وكانوا يعلمون بأنواء الكواكب وأمطارها ، ولكن هذا العلم لم يأت عن طريق تعلم الحقائق ، بل أدركوه بفرط الذكاء وكثرة العناية وطول التجربة ، وكانوا يتفاخرون رجالا ونساء بالفصاحة والبلاغة ونظم الأشعار وتأليف الخطب ، وكانت الشجر وهين ودمون أشبه بأسواق عكاظ والمربد والمجنة ، حيث كانوا يجتمعون هناك في مواسم معلومة ، فيلتقي كل شاعر شعره وكل خطيب خطبته ، ويصف كل شاعر وكل خطيب ما عمله هو أو غيره من خير وإصلاح ، وما تكبده من الأخطار والأهوال ، وقد يقوم فيهم حكيم فيعظ الناس ويرشدهم إلى الخير ويهديهم الصراط الأقوم ؛ ولقد حازت كيندة الدرجة الأولى في الفصاحة والبلاغة على جميع قبائل حضرموت ، حتى إن كثيرا من أهل البلاد النائية كدوعن وغيرها يشدون الرحال إلى دمون ليشهدوا مباراة أصحاب الكلام من الكنديين ، فيتعلم أولئك النزلاء شيئا كثيرا من ذلاقة لسانهم ، وحلاوة لهجتهم ، في مجتمعات دمون ، ووضوح معاني أشعارهم وخطبهم . قال امرؤ القيس :

كأني لم أسمع بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوما بعندل

وكانوا يكتبون بالحرف المسند (الحروف الحميرية) ، ولقلة الورق كانوا يكتبون في الجلود وفي ألواح الخشب ، وإذا كان ما يراد كتابته أمرا هاما ، فإنهم يكتبون على الصخور الصلدة ، لذلك نجد كتابات كثيرة على جبال حضرموت .

أما الحروف العربية ، وكذا أسماء الأيام والشهور فلم تكن معروفة في حضرموت إلا بعد ظهور الإسلام .

الحرف المسند أو الأبجدية الحميرية

وما طرأ عليها من التغيير

ض — 𐩦	ا — 𐩀
ط — 𐩢	ب — { 𐩡 𐩠 𐩡 𐩠 𐩡 𐩠 𐩡 𐩠
ظ — 𐩣	ت — 𐩤 𐩥
ع — 𐩦	ث — 𐩧 𐩨
غ — 𐩩 𐩪 𐩫 𐩬	ج — 𐩭 𐩮
ف — 𐩯	ح — 𐩰 𐩱
ق — 𐩲	خ — 𐩳 𐩴 𐩵
ك — 𐩶	د — 𐩷 𐩸 𐩹 𐩺
ل — 𐩻 𐩼 𐩽	ذ — 𐩾 𐩿 𐻀 𐻁 𐻂 𐻃
م — 𐩿 𐻀 𐻁 𐻂	ر — 𐻃 𐻄 𐻅 𐻆
ن — 𐻇	ز — 𐻇 𐻈 𐻉
و — 𐻊	س — 𐻊 𐻋 𐻌
ه — 𐻍	ش — 𐻍 𐻎
ي — 𐻏	ص — 𐻏

(أسماء الأيام)

جاءت أسماء الأيام منظومة في البيتين الآتين :

أوئمل أن أعيش وإنّ يومى بأول أو بأهون أو جبار
أو التالى دبار فإن يفتنى ففونس أو عروبة أو شيار

شيار : السبت	دبار : الأربعاء
أول : الأحد	مؤنس : الخميس
أهون : الاثنين	عروبة : الجمعة
جبار : الثلاثاء	

(أسماء الأشهر)

المؤتمر : محرم	الأصم : رجب
ناجر : صفر	عادل : شعبان
خون : ربيع الأول	نافق : رمضان
بصان : ربيع الثاني	وغل : شوال
حتم : جمادى الأولى	هواع : ذو القعدة
رباء : جمادى الثانية	برك : ذو الحجة

أما الملاحظة فقد كان للحضرميين الحظ الأوفر منها كما شرحنا ذلك . وأما الصناعة فكانت لهم مهارة عظيمة في النسيج ، وكانت الشجر أعظم مركز لمعامل النسيج ، ولهم مهارة في صناعة الحلّ الدقيقة ، وزخرفة الآنية وصناعة الأثاث ، وتركيب الروائح الطيبة ، وتحضير البخور وجنى القرفة وعيدان الدارصيني واللادن والمر .

قال هيرودتس : « وبلاد العرب فيها وحدها البخور والمر والقرفة والدارصيني واللادن ، والعرب يجنون كل هذه الأشياء بتعب جزيل إلا المر . ولاجتناء البخور يحرقون تحت الأشجار التي تولد صمغا يسمى ميعه ، يأتي به الفينيقيون إلى الأغارقة فيحرقون هذا الصمغ تنفيرا لنوع من الحيات الطائرة التي تأوى إلى تلك الأشجار ، ولا تذهب منها إلا بدخان الميعه . أما القرفة فلما يذهبون لحنيها يغطون أبدانهم ووجوههم إلا الحلق بجلود الثيران ، والقرفة تنبت في بحيرة قليلة المياه ، تسرح حولها حيوانات كالحفافيش تصبح صياحا هائلا ، وهي شديدة الأذى ، فيتقى العرب أذاها بهذه الجلود ريثما يجنون القرفة . وأما الدارصيني فيجنى بطريقة أعجب من الأولى ، والعرب أنفسهم لا يعرفون من أين يأتي . ويزعم البعض أنه ينبت في البلاد التي تربي بها

باخوس . وأن طيوراً تحمل عيّدان الدارصيني لتبني بها أعشاشها مع الطين في جبال وعرة بعيدة عن المدن . لا يستطيع الإنسان الوصول إليها . والعرب يقال إنهم يحتالون في الحصول على هذه العيّدان بقطع من لحوم البقر أو الحمير يضعونها في أقرب مكان من العش ، فيأقّي الطير ويحملها إلى فراخه ، وحالما يضعها في العش تثقله ، فيسقط ، فيتناول العرب عيّدانه ويتجرون بها . أما اللادن فطريقة جنيّه أعجب من هذه ، لأنهم يجدونه في لحي التيوس والماعز كالعفن الذي يتولد على الخشب فيدخلونه في تركيب طيوب كثيرة . والعرب يتطيّبون باللادن خصوصاً . وبلاد العرب ذكية الرائحة حيثما سرت . وفيها نوعان من الغنم . أحدهما ذيله يزيد طوله على ثلاثة أذرع إذا أرسلوه انسحب وراء الغنم وتقرح . والنوع الآخر عرض ذيله ذراع .

الزراعة

لا توجد في حضرموت أنهار سوى نهر واحد في حجر ، ولكن هناك عيون غزيرة في الجبال . وأهمّ هذه العيون وأغزرها ماء عيون تاربة ، وهذه كانت تسقى جميع ما حولها من الأراضي (الشروج . وغيل بدر بن عبد الله) . وعيون وادي جذع التي لا تزال آثارها من سواقي وأحواض باقية إلى اليوم . كانت هذه العيون تسقى جميع أراضي الحوير بين مريمة والقرن من ضواحي سيوون . وفي هذه الأراضي كان يزرع أجود الأعناب وأغلاها وعيون جبل القزة وهناك كانت تزرع الحنطة بكثرة . أما العيون التي بقرب الشواطئ . فهي عيون غيل باوزير ، وعيون جبال المكلا ، وعيون ميفع .

وكانوا يبنون السدود الفخمة لحجز مياه الأمطار ، ولها فتحات يخرج منها الماء فينسب في ترع منظمة ، ويغمر المرتفعات من الأرض والمنخفضات منها ، فكانت حضرموت كلها بساتين غناء ومروجا خضراء وغياضا فيحاء ، فيها الأغراس من الأشجار والرياحين والحنطة والقواكه كالأعناب والخوخ والكمثرى والبرقوق والإجاص والتفاح واللوز والجوز والسفرجل والمان وغير ذلك .

القريون^١

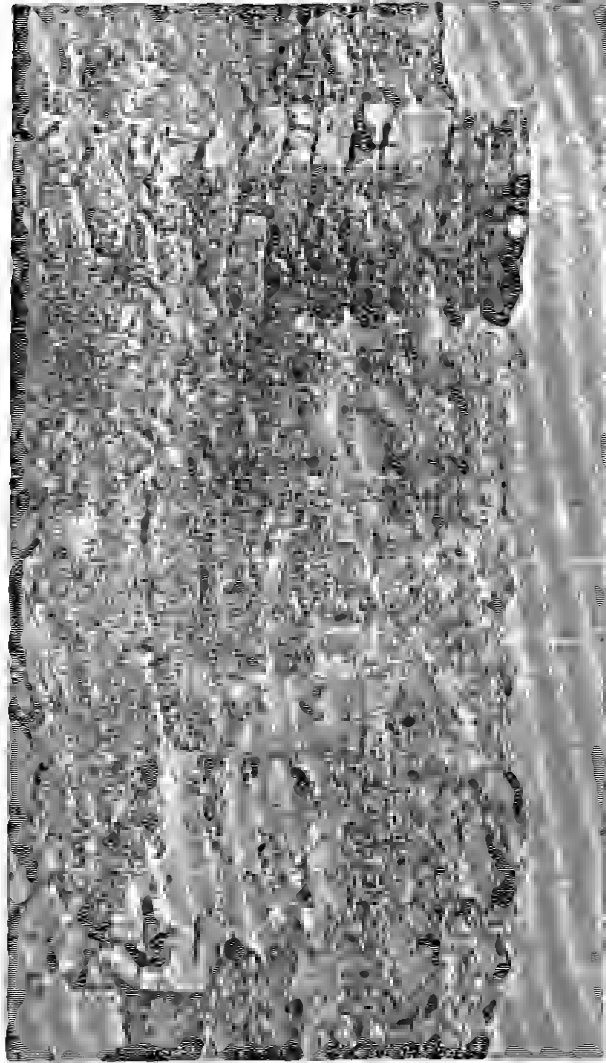
لم يذكر المؤرخون من العرب كثيرا عن القريين ، ولكن الفرنجة ذكروهم وكتبوا عنهم فصولا طويلة ، ووصفوا ماكان عليه القريون من الترف والبذخ . قال أغاثرسيدس : إنهم أغنى أهل الأرض ، وسبب غناهم اتجارهم بغلات بلاد العرب والهند . وقال استرابون : إنهم يتمتعون بكل أسباب السعادة والهناء ، فرشهم ثمينة وآنيتهم من الذهب والفضة ، يزينون جدران منازلهم بالذهب والفضة والعاج والحجارة الكريمة .

وقد اختلف هولاء في موضع مدينتهم جرا Garra . قال بعض المؤرخين : إنهم من أمم البحرين . وإن جرا فرضة على الاحساء . وقال العلامة اليوناني استرابون Strabon إنها واقعة في بقعة كثيرة الملح ، تبعد عن البحر بنحو ٢٠٠ ستادة (الستادة ثلث ميل إنجليزى) . وقال العلامة جليان Guillaian : إن مدينتهم على الشاطئ الغربى للبحر الأخضر (الخليج الفارسى) وحضرموت على المحيط الهندى ، والذي أراه وأستنتجه من هذه الأقوال وبالأخص قول جيان أن مدينة جرا ، تقع على مقربة من مدينة ظفار جنوب جبال القرا ، وأنقاض المدينة لاتزال قائمة ، وكثير من البيوت مظمور تحت الرمال .

المعادن

لعل أكثر القراء بندهشون من بذخ الحميريين وترفهم ، ولعلمهم لا يؤمنون بما كان يستعمله أولئك الأسلاف من الذهب والفضة والجواهر فى أثاثهم وآنيتهم وحيطان بيوتهم وأبوابها ، لأن بلاد العرب — كما يزعمون — ليست كلفورنيا أو أرجنتينيا فى معادنها ، وإنما هى صحارى جدداء ورمال غبراء وجبال جرداء ، ولو كانت هناك مناجم لكان لها اليوم أثر . والحقيقة أن ما قيل فى حضارة الحميريين حق باتفاق

(١) سيأتى الكلام عليهم فى الجزء الثانى .



(أنقاض مدينه) (بلد) جنوبي جبال القرا)

المؤرخين وأن بلاد العرب كانت تشبه كلفورنيا وأرجنتينا في معادنها ، وأكثر هذه المعادن في بلاد مدين ، وقد ألف العلامة برتون Burton كتابا أسماه : The Gold Mines of Médian « معادن الذهب في مدين » وصف فيه مناجم بلاد مدين وما كان يستخرج منها من الذهب والفضة والفصوص والبلور . ثم إن هناك مدينة ظفار ، كان بها أعظم منجم للذهب في عهد بلقيس إلى ما بعد ظهور الإسلام . قال المسيو جليان Guillain : إن العرب كانوا يستخرجون منها الذهب ، وإن لهم فيها

مقابر لاتزال مشهودة ، وقد رآها الكابتن بانجر الفرنسى ، وعلى قبرياتها أسماء أصحابها منقوشة بالعربية ، وهم الذين أسموها ظفار . وجاء فى التوراة (إصحاح ٨ عدد ١٧ من الأخبار) قال : « حينئذ ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى أيلة على شاطئ البحر فى أرض أدوم ، وأرسل له حورام بيد عبيده سفنا وعبيدا يعرفون البحر ، فأتوا مع عبيد سليمان إلى أوفير (ظفار) وأخذوا هناك ٤٥٠ وزنة ذهب وأتوا بها إلى ظفار الملك سليمان » .

أما موقع مدينة أوفير فقد اختلف المؤرخون فيه وأتوا بأقوال متضاربة . قال العلامة جيان : إنها فى الساحل الشرقى فى قارة أفريقيا ؛ وقال آخر : إنها فى الهند ؛ وقال المرحوم أحمد زكى باشا : إنها مدينة وبار ؛ وقال المستشرق الفرنسى كاترمير Quatremère : إنها على ساحل بلاد العرب ؛ وقال العالم الجغرافى الفرنسى جوزيف جوسلين Gosselin فى الجزء الثانى من كتابه الموسوم « أبحاث » فى الجغرافيا الأصولية عند الأقدمين : « إن أوفير هى ظفار . هكذا اختلفت آراء العلماء وتضاربت أقوالهم . فإذا فرضنا أن أوفير فى الهند أو فى سواحل أفريقيا الشرقية فإن هذا يجعلنا نشك فيما قاله المؤرخون إن الحميريين كانوا يصنعون آتيهم وأثاثهم من الذهب ، ويزينون حيطان غرفهم بالحجارة الكريمة ، ويعلقون أمام منازلهم صحائف الذهب المرصعة بالجواهر ، إذ ليس من المعقول أن يأتوا بتلك المعادن الثمينة من الهند أو من سواحل أفريقيا الشرقية ، والمسافة بينهم وبين تلك البلاد النائية بضعة شهور ، الأمر الذى يكلفهم مصاريف باهظة ومتاعب شاقة ، ليس من المحتمل أن يجلبوا تلك المعادن الغالية من البلاد القاصية ، ثم يصنعوا منها آتيهم ويزينوا بها أثاثهم ويوتهم . إذن فالقول ما قاله العلامة جوسلين Gosselin بأن أوفير هى ظفار ، وليس بين الكلمتين فرق مثل ما بين ظفار ووبار .

أما عدم وجود أثر للمناجم اليوم ، فهذا لانهض حجة فى عدم وجود معادن ألبنة . ومن المحتمل أن تكون هناك مناجم كثيرة لمعادن ثمينة لاتزال بكرا ، ولكن الجهل الضارب أطنابه فى جنوب الجزيرة العربية هو الذى أعشى الأبصار عن موقع تلك المناجم وحرماننا استغلال تلك الكنوز القيمة .

الآثار

لعاد وأقيال التبابعة وملوك حمير آثار قيمة وكنوز ثمينة لا يزال أغلبها مطمورا تحت الرمال ومقبورا في بطون الأودية والجبال ، فهناك أحجار وصخور عليها كتابات ورموز ونقوش لا يوجد من يحلّ معها ويطلع على أسرارها ، وهناك أيضا مغابر في الجبال قيل إن فيها كنوزا وآثارا ، ولكن أغلب الأهالي يزعمون أنها مساكن الجن وقد حاول أفراد دخول تلك المغابر فانطفأت المصابيح التي حملوها معهم لكثرة ثاني أكسيد الكربون وعادوا خوفا من أن يضلوا الطريق فيهلكوا .

وفي جبل القرة توجد فتحة كبيرة على شكل باب مستطيل رصفت أمامه صخور كسلاط للصعود ، وبداخل هذا الباب ممر متسع يوصل إلى دهاليز لاتعرف نهايتها ، ولا يعلم أحد ما بداخلها لشدة الظلام ، وعلى مقربة من هذا الكهف نقوش كثيرة وصور أقدام منقورة في الصخور . وفي جبل حريضة توجد حفرة اسطوانية الشكل يقال لها بئر عمدان ، وفي نهاية هذه البئر فتحة مستطيلة الشكل حالكة الظلام ، تنبعث منها روائح كريهة لكثرة ما فيها من الرطوبة وتحلل الصخور وبول الخفافيش ، ويعتقد الأهليون أن فيها كنوزا ثمينة ، ولكنهم لا يجرون على الدخول فيها لزعيمهم أن فيها عفاريت .

المشهد :

توجد في المشهد أحجار كثيرة عليها كتابات ونقوش ويستعملها بعض الأهالي لبناء البيوت والآبار والسقايات ، وفي جنوبه على مسافة عشر دقائق منه تقوم أطلال غيبون ، وينسبها الناس إلى قوم عاد ، ويحتمل أن تكون بقايا مدينة حميرية لوجود كتابات بالحرف المسند، وتوجد هناك تلال تعلو إلى ٣٠ قدما ، على سطوحها أنقاض حيطان مبنية من الأحجار المتناسكة ببعضها بنوع من الملاط ، وعلى المنحدرات بقايا أحجار عليها نقوش ، وعلى أحد هذه التلال بئر يبلغ اتساعها ٣٠ قدما وعمقها ٦٠ ، وعلى بعد ربع ساعة من غيبون تقوم أطلال أخرى تسمى مقابر الملوك ، وهي عبارة

عن حيطان فى الصخور قائمة على تلال متوسطة الارتفاع ، وعلى بعضها نقوش وكتابات .

واد عمد : (منطقة فقيرة وجافة ولكنها غنية بآثارها)

هكذا قال عنها السيدان ميان D. Va Ser Meulen ووزيرمان H. Von Wissmann حينما اخترقا هذا الوادى المنبسط فى مايو سنة ١٩٣١ ، فقد شاهد ا هناك أغنى بقعة أثرية فى حضرموت ، وهى تمتد إلى مسافة ميلين ونصف ميل ، ولكن السيول قد أثرت عليها فجرفت بعضها ومحت معالمها ، وتدل تلك المخلفات الكثيرة على أنها كانت قديما تموج بالسكان .

ديار عاد :

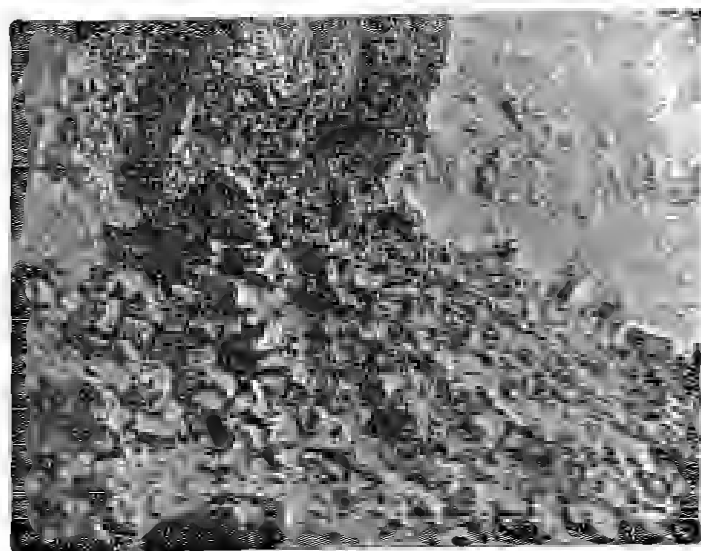
وفى وادى ثقب على مقربة من قرية بريرة توجد بقايا أبنية يقال لها ديار عاد ، وتوجد هناك مجار للسيول يبنى فى بعضها الماء طول العام . وتوجد بركة كبيرة بها ماء آسن ، وفيها أفاعى سامة ، وعلى مقربة منها وهدة عميقة بها بقايا منازل وأنقاض مساكن ، يبلغ طول الواحد منها عشرة أقدام وعرضه ستة أقدام ، وبعضها مسدد بالصخور مما يحتمل أن يكون فيها كنوز ، وعلى بعض الحيطان نقوش باللون الأحمر ، وهذه لمساكن مبنية من الصخر الطبيعى ومماسكة ببعضها بالطين .

سرن :

فى سرن بالقرب من قرية رضيع توجد أطلال متهدمة لا تزال أسسها ترى على قمم الأكوام ، وهى من الحجر غير المنحوت ، وعلى إحدى القمم توجد أحجار هى بقايا نوع من الملاط ، وتوجد هناك جرار كثيرة عليها نقوش وأنقاض حائط ضخمة من الصوان الطبيعى كان متصلا بالجبل ، وهو من بقايا سد كان يخترق الوادى فيما يرجع إلى ما قبل الإسلام ، وبين قسم وقبر هود عليه السلام توجد قرية خربة وقلاع كبيرة لا يزال بعضها قائما بصورة تبعث فى القلوب الهيبة والوقار ؛ وفى فغما على مقربة من سوم توجد منطقة حافلة بالأطلال الضخمة ، وعلى مقربة منها تقوم أطلال حصن العر



« وادی نقب »



« دیار عاد »



« أملاك أترية قرب سول »

وهي عبارة عن بقايا من الحيطان الضخمة يرجع عهدها إلى ما قبل الإسلام . قائمة على تلّ منعزل ، ممتدّة إلى مسافة بعيدة ، شديد الانحدار ، وهذا الحصن المتهدّم كان فيما مضى قلعة تشرف على ذلك الإقليم ، وفي سفح التلّ توجد بئر مطمورة ، ولا

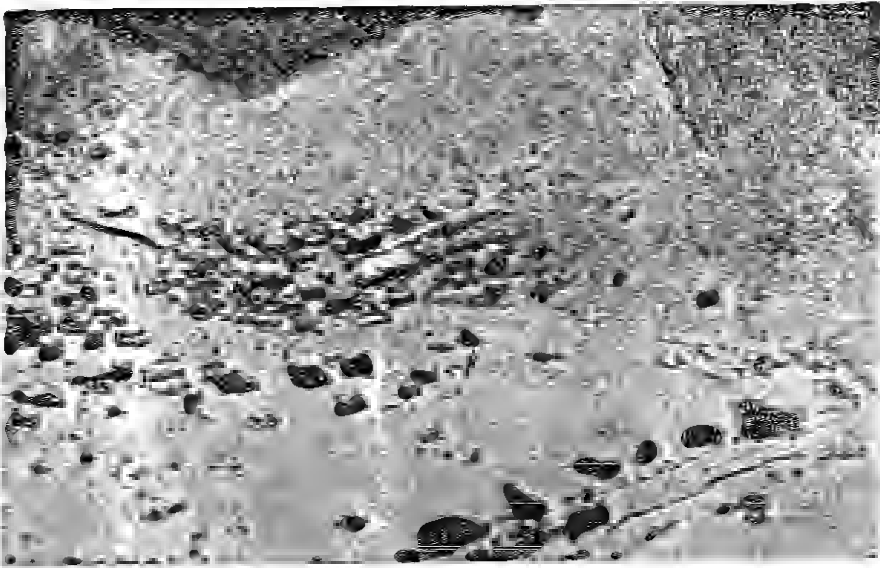


« البيل اسين غير »

تزال آثار الطريق الذى يؤدى إلى القمة متميزة ، وما زالت بقايا الأبنية مبعثرة حول قمة التلّ على ارتفاع ٥٠ قدما ، وهناك ممرّ صغير فى الصخر ، منحدر من الجهة الجنوبية الشرقية ، حيث توجد بضعة درجات كانت المدخل الرئيسى للقلعة ، وعلى الأعمدة المتهدمة نقوش دقيقة تدلّ على مهارة صانعها ، فقد رسم صورا للصييد بها فرسان يحاربون الأسود وجها لوجه ، وصور أخرى جميلة للوعل الذى يلعب دورا مهما فى خرافات حضرموت ، ورسم أيضا عناقيد العنب كزخارف جميلة للأعمدة .

قبر هود :

جاء فى كتاب معجم ما استعجم للبكرى «أن الكلبي روى عن رجاله عن الأصبع ابن نباتة قال : كنا عند عليّ بن أبي طالب فى خلافة عمر ، فسأل رجلا من حضرموت فقال : أعلم أنت بحضرموت ؟ قال : إذا جهلتها فما أعلم غيرها . قال : أتعرف موضع الأحقاف ؟ قال : كأنك تسأل عن قبر هود ؟ قال : نعم . قال : خرجت وأنا غلام فى أغيلة الحىّ نريد أن نأتى قبره لبعده صيته ، فسرنا فى وادى الأحقاف أياما ، وفينا من قد عرف الموضع حتى انتهينا إلى كتيب أحمر فيه كهوف ، فأنتهى بنا ذلك الرجل إلى كهف منها ، فدخلناه فأمعنا فيه ، فأنتهينا إلى حجرين قد أطبق أحدهما فوق الآخر وفيه خلل يدخل منه النحيف متجانفا ، فرأيت رجلا على سرير شديد الأدمة كثّ اللحية ، قد يبس على سرير ، وإذا لمست شيئا من جسده وجدته صلبا ، وعند رأسه كتابة بالعربية : أنا هود الذى آمنت بالله ، وأسفت على عاد لكفرها ، وما كان لأمر الله من مردّ . فقال عليّ : كذلك سمعته من أبي القاسم صلى الله عليه وسلم . وهذه الرواية مشكوك فى صحتها ، ويحتمل أن تكون من أخبار القصص المنمقة . ويقال إن هودا عليه السلام مات بحضرموت ، وقبره على تلّ مرتفع من الأرض ، عليه قبة مربعة الشكل ، مطلية من الداخل والخارج بالجير الأبيض ، ويبلغ الضريح مائة وعشرين قدما . وهذا لا يدل على طوله عليه السلام ، وإنما هو رمز لعظمته ، وفى وسط القبة يقوم بناء مستدير كقاعدة عمود سميك فوق صخرة ، ويظنّ أن هذا المكان هو الذى انشقت فيه الصخرة ، وقد صقلت هذه الصخرة بآلاف الأيدي التى



« قبر هود عليه السلام »



القبة المربعة التي فيها قبر هود

مرّت عليها ، وآلاف الشفاه التي قبلتها ، وكتبت على الحيطان الآيات القرآنية

الكريمة التي نزلت في هود ، والأحاديث الموضوعة التي تحضّ على زيارة هذا القبر ، وعلى مقربة من القبة يقوم « مسجد الناقة » تشرف عليه قطعة من الصخر ، يزعم الأهالي أنها الناقة المتحجرة ، وتوجد هناك عدة بيوت ذات طابقين ، وبناء هذه البيوت وهذه القبة بسيط في ذاته ، لا تظهر فيه براعة الفنّ الحضري ، ولكن يشعر القادم إلى هذا الوادي الهادئ الصامت بشيء كثير من الهيبة والإجلال لذلك القبر المقدس ، وقد بولغ في تقديس هذا الضريح ، فتراهم يشدونّ الرحال لزيارته ، وعندهم شيء من بقايا الشعور الوثني الذي كان يشعر به العرب للآلات والعزى يستعينون به ويتجهون إليه ، ويولون وجوههم شطره لقضاء الحاجات واستئزال البركات ودفع الكريات . يأتي الشخص من العوام القبر ومعه قطعة من الخشب بها خيط ملون من الصوف في نهايته قطعة صغيرة من الحجر ، أما القطعة الخشبية فتوضع في الحائط الخارجي للقبة . ولا يسمح بقذف الخشب في داخل القبة ، أما الخيط الصوفي فيجمع ويرطب باللعب ويقذف في الحائط أو السقف ، ولهذا تظهر الحيطان والسقف كأنها مغطاة بطبقة من الورق المزخرف أو زينت بنقوش مختلفة الألوان .

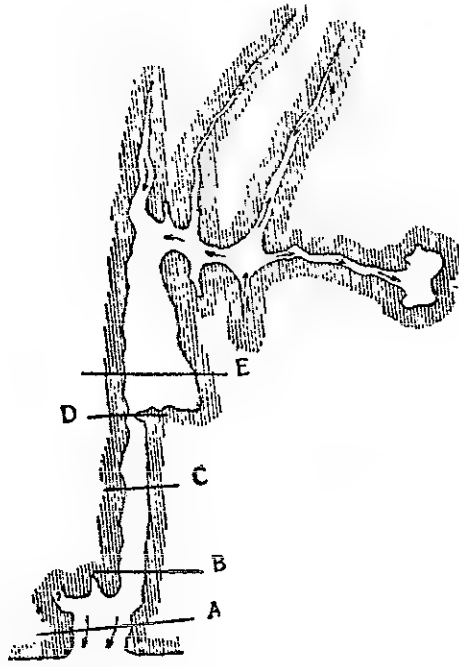
والخضارم يزورون هذا الضريح المقدس مرة في كل عام يقيمون هناك ثلاثة أيام ثم يعودون ، وتبقى تلك القرية الهادئة خالية عن السكان إلا الحرس الذين يحرسونها .

قبر صالح عليه السلام :

وفي وادي سر يوجد قبر طويل عليه قبة كبيرة يزعم الناس أنه قبر صالح عليه السلام ، ولذلك يشدونّ الرحال إليه مرة في كل عام ، ولهم اعتقادات خرافية حول هذا الضريح ، والتاريخ لا يثبت وجود قبر صالح عليه السلام في حضرموت لأنه مات في الحجاز .

بئر برهوت :

تقع بئر برهوت على مقربة من قبر هود عليه السلام ، في الوادي الرئيسي للسبعة



« بئر برهوت »

الأودية ، وهذا الوادى يتسع في مبدئه ويأخذ في الضيق حتى يكون في أعلاه زاوية ، وليس هناك أثر لكائن حي ويغطى بطبقة من الطفل ، ولا زالت بعض بقايا المزارع وقليل من حراج النخيل باقية هناك ، لا تتخلل هذا الصقع صخور شاهقة ، وليس هناك أى أثر يدل على وجود براكين كما يزعم بعض الناس ، فهناك طبقات من الصخر الجيري تعلوها أخرى من الحجر الرملي ، وتكثر في جانبي الوادى الكهوف والمغائر . وعلى مقربة من نهاية الوادى على بعد ثلاث ساعات من مبدئه تظهر فوهة البئر السوداء على ارتفاع ٣٠٠ قدم من سفح الجبل ، وقد نقر في الصخر طريق معبد معرّج تهدم جزء كبير منه بفعل المياه ، وكانت الجمال تسير فيه لجلب السماد الناتج عن فضلات الخفافيش التي توجد بكثرة في البئر ، ويبلغ البئر ١٢٠ قدما في الطول ٤٥٠ في العرض ، ٦٠ في العمق ، ويزعم الناس أنها مأوى أرواح الكفار والأشرار ، وقد ساعدت على تثبيت هذه الخرافة في أذهانهم عزلة هذا الصقع ولونه القاتم ومنظره الرهيب .

ورد ذكر هذه البئر في الكتب العربية الجغرافية القديمة ، فقد ذكرها الهمداني

في كتابه « صفة جزيرة العرب » ، وذكرها القزويني في كتابه « عجائب المخلوقات » فقال : « تقع بئر برهوت على مقربة من حضرموت ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أرواح الكفار والمنافقين تسكن فيه » وهو من أيام عاد . وقيل : إن عليا كرم الله وجهه قال : « إن أكره بقعة في الأرض عند الله هو وادي برهوت ، وبها بئر كريهة الرائحة وماء آسن حيث تسكن أرواح الكفار » . وقال المسعودي في « مروج الذهب » : « تقع بئر برهوت في بلاد أسفار وحضرموت وهي جزء من بلاد الشحر بين اليمن وعمان ، ويسمع لها صوت كالرعد على بعد أميال ، وتنفذ أكواما من اللحم يسمع لها أزيز مرعب » . وقال الأصمعي : « حدثني رجل حضرمي فقال : كلما شممتنا رائحة خبيثة في إقليم برهوت علمنا بعد ذلك أن شخصية كبيرة من الكفار قد ماتت » .

وكل هذه الروايات ليس لها حظ من الصحة ، ومن المحتمل أن بئر برهوت كانت في العصور الواغلة في القدم ملجأ لرئيس قوم كانوا يسكنون في تلك المغاير التي حولها . وأصح ما قيل عنها ما جاء في كتاب Hadramaut للسائحين السيدين ميلان D. Van Der Meulen ووزيرمان H. Van Wissmann فقد رحلا إلى حضرموت في سنة ١٩٣١ وبلغا بئر برهوت وشاهدا ما بداخلها ، وها نحن نذكر وصفهما لتلك المغارة الخالكة للظلام .

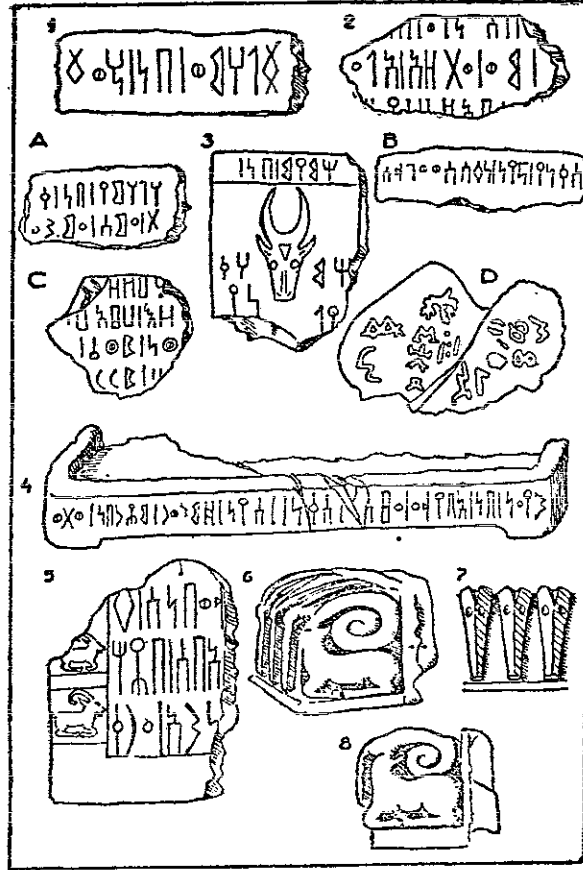
« دخلنا وكان لوزيرمان خبرة بكشف الكهوف ومعنا الآلات العلمية اللازمة ، وفانوس لتختبر به هواء البئر عما إذا كانت به كمية وافرة من الأكسجين . وسرنا بحذر لأن حافة الكهف كانت منحدرية ، والتراب ناعم بحيث لا نسمع وقع الأقدام عليه ، والظلام حالك جدا ، والسكون تخيم لا نسمع إلا صوت الخفافيش التي نجمت عنها رائحة خبيثة ، ثم وجدنا الممر متصلا بجزء متسع ، فسألنا رفاقنا البدو الذين أخذوا بروعة المنظر : هل هذا هو مقر أرواح الكفار ؟ فأجابوا : الله أكبر الله أعلم ، ثم أخذ الممر يضيق ثانية ، وانتهى إلى دهليز ضيق لا يمكن السير عليه ، ولا يوجد طريق آخر سوى ممر ضيق على اليمين ، كلما تعمقنا فيه كلما اشتدت الحرارة ، ووجدنا أنفسنا مضطرين للعدة بسبب الحرارة والظلام والروائح الحارقة ،

وكلما تقدمنا نقاطع الممرّ مع ممرّات أخرى على الجانبين ، ووجدنا آثارا تدل على وجود إنسان وأثر كوة نقرت في الحائط وقطع من الفحم الخشبي ، ولما تقدمنا قليلا وجدنا مثل ذلك . وقد أخذ الممر يضيق وتزداد حرارته ، ولما خرجنا وجدنا أنفسنا نتصبب عرقا وقد تغطت أجسامنا بطبقة من الرّى فأصبحنا كالوقادين ، وكانت بعض الدهاليز الجانبية شديدة الانحدار ، وقد دخل فون ويزمان وعلى أحدها وعلى جانبيه أكدام من الأحجار ، وبعد أن سارا مسافة طويلة سمعنا صوت انهيار كدم من الأحجار ولم نر ضوء المشعل الذى معهما ، ثم خيم صمت رهيب وبعد ٢٠ دقيقة ونحن في قلق متزايد خرجا منهوكى القوى ، فساعدناهما على الصعود وكانت الحيطان مغطاة بطبقة بيضاء اللون حسبناها ملحاً ، ولما تذوقناها لم نجد لها طعم الملح وتخللها أصداق لأعداد لها . فز عنا بعضها وأخذناه معنا . ولما بحثنا كل الممرات عدنا أدراجنا وفي طريق العودة كان الجوّ يزداد برودة ، ولسوء الحظ لم نحضر معنا ترمومترا حتى نسجل الحرارة ، ولما خرجنا وجدنا رفاقنا يغطّون في سبات عميق ، فلما أيقظناهم نظروا إلينا في شيء كثير من الدهشة إذ كانوا يتوقعون هلاكنا ، وانتهينا بعد بحثنا إلى النتيجة الآتية : وهى أن برّ برهوت كهف جبرى ليس به أثر بركانى ، وأما الروائح الخبيثة فهى ليست ناجمة عن الكبريت ، بل عن تحلل الصخور وبول الخفافيش . والسبب فى الشعور بالحرارة ليس نتيجة عوامل بركانية : ولكن من تأثير الحرارة الخارجية » انتهى بتصرف قليل .

مدينة مكنون الخاوية :

وعلى مقربة من سوم تقع أطلال مدينة مكنون . ولا زالت بقايا الأبنية القديمة قائمة ، ويتصل بهذه الخرائب مكان متسع كان مقبرة ذلك الحى ، والقبور طويلة مما يدل على أن أصحابها كانوا عماليق ، وقد رصفت الأحجار على القبور بشكل دوائر ، وبقرب وادى سخور تقوم أنقاض قلعة كبيرة ، وعند فتحة وادى سخور فوق الصخور على ارتفاع ٣٠٠ قدم تقوم قلعة ثوبى ، ولا زالت حيطانها حافظة شكلها بالرغم عن سقوطها وتراكمها بعضها على بعض . وتوجد حصون كثيرة واستحكامات مهتمة

في ثوبى والعمر ، وهذا يدل على أن هذا الإقليم كان منطقة حربية لحماية حدود المملكة .



« نقوش وكتابات على صخور في ديار عاد ومشهد ووادي ثقب »

وفي سنة ١٣٣٥ هـ جاء سيل عظيم ، فكشف عن آثار هامة ، جلى ونقود وأصنام من ذهب ومن فضة ، بيع جلها بثمان بخس في عدن وجيبوتي وزنجبار . ومن يقارن الآثار الحضرمية القديمة بالآثار المصرية القديمة يجدها متشابهة تمام التشابه . وهذا يؤكد ما قاله بعض المستشرقين من أن المصريين القدماء فوج من قبائل أسبوية مرت بحضرموت في طريقها إلى الحبشة ، ثم إلى وادي النيل .

دخول الإسلام في حضرموت

لم يثبت لنا التاريخ أن الحضارم عبدوا الأصنام قبيل الإسلام كما كان يعبدوها كثير من العرب في قلب الجزيرة وفي اليمن ، ولم يذكر لنا التاريخ أنهم عبدوا الحيوان أو النار ، وإنما كان أغلبهم على الفطرة ، على أن اتصالم باليمن والحجاز كان متينا ، وسفرهم للحج كان في كل عام . ولقد رأوا العرب هناك تقدس الأصنام وتعبدوها لتقربهم إلى الله زلفى ، ورأوا ازدحام الكعبة بالأصنام فلم يتأثروا بذلك ، ولم تدفعهم النعرة الدينية لصناعة الأصنام وعبادتها في حضرموت ، والأصنام التي اكتشفها السيل سنة ١٣٣٥ هـ يرجع عهدها إلى عصر عاد حين طغوا وبغوا وانتحلوا دين الصابئة . يقول الفيلسوف ابن خلدون الحضرمي : « ثم لما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم ، انتحلوا عبادة الأصنام والأوثان من الحجارة والخشب ، ويقال إن ذلك لانتحلهم دين الصابئة ، فبعث الله إليهم أنخام هودا » .

ولما ظهر الإسلام تآقت قلوبهم لاعتناقه والإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأرسلوا وفدا برئاسة وائل بن حجر بن ربيعة بن وائل بن معمر الحضرمي الكندي ، وذلك في السنة السابعة للهجرة . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر أصحابه قبل قدومه وقال : « يأتيكم بقية أبناء الملوك » ، ولما جاء رجب به وأدنى مجلسه ، وبسط له رداءه وقال : « اللهم بارك في وائل وولده وولد وولده » ، واستعمله على الأقبال من حضرموت .

وروى صاحب (البداية والنهاية) أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطعه أرضا وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان ، فخرج معه راجلا ، فشكا إليه حرّ الرضاء ، فقال له : انتعل ظلّ الناقة ، فقال : وما يغني عنى ذلك ، لو جعلتني ردفا ، فقال له وائل : اسكت فلست من إرداف الملوك ، ثم عاش حتى وفد على معاوية وهو أمير المؤمنين ، فعرفه معاوية ورحب به وأذكره الحديث ، وعرض عليه جائزة سنوية فأبى أن يأخذها وقال : أعطها من هو أحوج إليها مني .

ويذكر بعض المؤرخين أن الأشعث بن قيس الكندي قدم على رسول الله

صلى الله عليه وسلم في بضعة عشر راكبا مسلما ؛ فلما دخل رحب به وأدناه من نفسه ، ولما أراد الانصراف سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يولى عليهم رجلا فولى عليهم زياد بن لبيد البياضى الأنصارى ، فأقام في تريم . وكان المثل الأعلى في الخلق الحسن ، ولا غرو فقد اصطفاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعل في بعض البلاد نوابا عنه يجمعون الصدقات ويعلمون الناس أحكام الدين ، ولقد آمن الحضرميون جميعا بالإسلام بسرعة ليس لها في الجزيرة العربية مثيل ، وانقادوا لأوامره دون أن يظهروا أى مقاومة . وانقياد الحضرميين للدين بهذه السرعة ولو أنه يدل على السداجة وسلامة النية ، يعدّ مفخرة من المفاخر العظيمة التى يحفظها لهم التاريخ إلى الأبد .

أما الصدقات العظيمة التى كان يجمعها زياد بن لبيد ، فكان أغلبها من النقود والحبوب والجمال والثمار ، وكان زياد يرسل هذه الصدقات إلى مكة ليبيت المال بعد أن يأخذ من النقود والحبوب والثمار جزءا كبيرا يتصدق به على الفقراء والمعسرين في حضرموت .

كندة

هم بنو كهلان بن ثور بن غفير بن عدى بن الحارث بن مرة بن أد بن زيد بن كهلان . وغفير أول من لقب كندة ، لأنه كند أباه نعمته : أى جحدها وكفر بها . أجلوا من البحرين والمشرق بعد قتل ابن الجون . وكان الذى نقل منهم إلى حضرموت نيفا وثلاثين ألفا ، أقاموا في الشحر ودوعن والكسرا وعندل والهجرين ورخية ودهر وسدية (سدية ٢) وبدأ (حورة) ومنوب ودمون .

كانوا على جانب عظيم من الذكاء وسرعة البداة وقوة الفراسة ، فصحاء بلغاء ، وكان ملوك حمير يصاهرونهم ، ويولون ذوى الشخصيات البارزة منهم وأصحاب العقول الراجحة منهم على قبائل البادية . وأول ملوكهم حجر بن عمرو الكندى الملقب

(١) يشمل الكسرهين وقعوطة : والقزة والخشعة ، وكان يعرف بكسر قشاش .

(٢) كان اسم سدية : سدية بالياء ، واسم حورة : بدا ، نسبة إلى قبيلة بدا الكندية التى سكنتها وعمرتها .

بأكل المرار ، وكانت كندة قبل أن تملك حجرا عليهم في تطاحن وتنازع وتخاصم يأكل القوى منهم الضعيف حتى ملك حجر ، فأصلح أمورهم وجمع شملهم ووحّد صفوفهم ، وساسهم بعقله الراجح أحسن سياسة ، وحينما اشتدّ التنازع والتناحر بين قبائل معدّ بن عدنان بالحجاز ، اجتمع عقلاؤهم ، وأرادوا أن يولوا عليهم ملكا منهم يطفىّ الفتنة ، ويصلح الأمور ، فرأوا أن قبائل معدّ لا تخضع لملك منهم ، فسار وفد منهم إلى حسان بن تبع الحميري وطلبوا إليه أن يولى عليهم ملكا ، وكان حجر ابن عمرو الكندى المذكور ذا رأى وحزم وحلم ووجاهة ، فولاه عليهم ، فسدّد حجر أمورهم ، وجمع قلوبهم ، ووحّد صفوفهم ، وساسهم أحسن سياسة ؛ ولما مات ملك بعده ابنه عمرو ، ثم قام بالأمر بعده ابنه الحارث ، وكان قوى الملك ، قيل إنه وافق كسرى فيروز على الزندقة ، والدخول في مذهب المجوسية ، وملك بعده ابنه حجر على بنى أسد ، كما ملك باقى بنيه على كثير من قبائل العرب ، وكان حجر قاسيا في حكمه ، سيئ السيرة ، قبيح المعاملة ، فتنكر عليه بنو أسد ، فقاتلهم حتى قهرهم ، ثم هجموا عليه وقتلوه غيلة في دمون .

ولما ضعفت الدولة الحميرية ، ودبّ إليها الانحلال ، ازدادت قوة كندة ، واتسع نطاق سلطانهم ، وامتدّ نفوذهم ؛ ومن أشهر ملوكهم مخوس ومشرح وحمّد وابضعة والعمردة بنت الأعشى ، وكانت العمردة أشدّ تأثيرا من إخوانها في الناس وأكثر نفوذا منهم لبلاغتها وذكائها وجمالها وبراعتها في تدبير شؤون الحكم ، وكان نفوذ هؤلاء الخمسة مطلقا لاحدّ له ، وكانت أحكامهم قاسية ، ولكنهم أهل قناعة وكرم ؛ فقد كانت ثرواتهم واسعة وأراضيهم خصبة ذات غلات وافرة ، وكانوا يرسلون ملوك الروم واليمن ، ويغمرونهم بالهدايا النفيسة التي كان أحسنها الخيل الذي كان يوجد بكثرة في حضرموت الشرقية حيث الحشائش والأعشاب ، وكانوا ولعين يشرب عصارة الأعناب ، وكانت لهم معامل للخمر في دمّون عاصمة ملكهم بحضرموت الوسطى .

كندة في دورها الأول الإسلامى :

جاء الإسلام وكندة صاحبة الحول والطول والتاج والصولجان ، وكانت أربعة طوائف : طائفة تحكم الشواطىء من حدود ظفار إلى المكلا التى كانت إذ ذاك أكواخا للصيادين ، وعاصمة هذه الولاية الشحر ؛ وطائفة تحكم جميع دوعن ؛ وطائفة تحكم الكسر كله والعجلانية وحورة وسدبة والمجرين وعندل ولحروم وحريضة ، ومركز هذه الولاية حورة ؛ وطائفة تحكم كل البلاد الواقعة بين منوب وقبر هود عليه السلام ، وعاصمة هذه الولاية دمون ، وهؤلاء كانوا المراجع للطوائف الأخرى ، أو بعبارة أوضح كانوا المهيمنين عليهم إلا ولاية الشحر فإنها كانت مستقلة عنها كل الاستقلال ، وكانوا أهل ترف وبذخ لخصوبة أراضيهم وكثرة غلاتها ، وكانوا مندفعين كل الاندفاع وراء المملذات الجسدية . أما ولايتا حورة ودوعن فكانوا يمثلون الرجولة بكل معانيها ، وجميع الولاة فى النواحي الأربع كانوا أهل قناعة وكرم أحكامهم عادلة ومعاملتهم مع الرعايا حسنة ، وكانوا من أوائل الداخلين فى الإسلام .

امتناع كندة عن دفع الزكاة :

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب أبو بكر رضى الله عنه إلى زياد بن ليبيد الأنصارى يخبره ب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويأمره بأخذ البيعة من أهل حضر موت ، فخرج زياد بن ليبيد يدعو الناس لبيعة أبي بكر رضى الله عنه ، فبايعه خلق كثير ، وامتنع عن البيعة حارثة بن سراقة بن معدى كرب بن الحارث من عظماء كندة وخطبائها ، وامتنع عن دفع الزكاة الأشعث بن قيس من سادات كندة وأغنيائها فى كثير من أتباعه ، وارتدت بنو وليعة بن شرحبيل بن معاوية ، فتركهم زياد وشأنهم . وكان فى استطاعته أن يرجعهم إلى الإسلام لأنهم شذمة قليلة الرجال والمال ؛ أما حارثة ابن سراقة والأشعث بن قيس فليس فى استطاعته أن يخضعهما بالقوة لبيعة أبي بكر رضى الله عنه ولدفع الزكاة ، لأنهما إذا غضبا غضب لهما آلاف مؤلفة من رجالا

كندة ، ولكن كان ينبغي أن يراودهما ويدعوها ومن معهما إلى البيعة ودفع الصدقة ، فلم يفعل بل التزم السكون والصمت ، واكتفى ببيعة سكان شبام والغرفة وسيون وتريم ومريمة ودمون .

خرج زياد بن لبيد يوما لأخذ الصدقة ، فأخذ فيما أخذ بكرة من أحد فتيان كندة فهاج الفتى وماج وصيح وصيح وهرع إلى حارثة بن سراقه بن معدى كرب الكندى واستغاث به ، فجاء حارثة بن سراقه إلى زياد بن لبيد ، وأمره أن يطلق للغلام بكرته فامتنع وقال عقلتها ووسمتها بميسم السلطان ، فهدده حارثة وأنذره وقال له : أطلقها أيها الرجل طائعا قبل أن تطلقها وأنت كاره ، فأبى زياد ولم يبال بوعيده ولا بتهديده ، فوثب حارثة بن سراقه وحل عقال البكرة وضربها ، فانطلقت تعدو وحارثة يقول :

يمنعها شيخ بخديه الشيب ملمع كما يلمع النوب

ماض على الريب إذا كان الريب

استغاث زياد بن لبيد بأصحابه فأتوه سراعا ، وانحاز بنو وليعة المرتدون إلى حارثة ابن سراقه وخرج بجيشه لمحاربة زياد بن لبيد وأتباعه ، فلقيهم زياد وقتلهم ، وكاد ينهزم لولا أن الحرب وضعت أوزارها ريثما ينجلي الليل ، فأتاه عبد له وكان قد انحاز إلى حارثة وأخبره أن ملوكهم الأربعة مخوس ومشرح وحمد وأبضعة في محجرهم قد ثملوا من الشرب ، فذهب إليهم زياد خلصة وذبحهم وجعل يقول :

نحن قتلنا الأملاك الأربعة حمدا ومخوسا ومشرحا وأبضعة

ولما علم بذلك الأشعث بن قيس خرج في جماعة من كندة وعرض لزياد وأصحابه فانهزموا ، فاستغاث الأشعث بعظماء كندة ولما رأى زياد ذلك كتب إلى أبي بكر رضى الله عنه يستمده ، فكتب أبو بكر رضى الله عنه إلى المهاجر بن أمية وإلى صنعاء يأمره بإنجاد زياد بن لبيد ، فخرج المهاجر بن أبي أمية في جيش كبير ، ولما بلغ ذلك أصحاب زياد ثبتوا في صف زياد وعاد إليه أغلب الذين انحازوا إلى حارثة ، فخرج زياد والمهاجر بن أبي أمية بجيشهما فلقوا الأشعث وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ولما جن الليل لجأ الأشعث وبعض رجاله إلى حصن النجير ، فحصرهم ومنعوا عنهم القوات وكادوا يموتون جوعا ، فطلب الأشعث الأمان له ولعدة أشخاص من أعيان أصحابه ،

فقام إليه معدان بن الأسود بن معدى كرب وقال : اجعلنى من العدة ، فأدخله فيهم وأخرج نفسه ونزل إلى زياد بن لبيد والمهاجر ، فقبضوا عليه وبعثوا به إلى أبى بكر رضى الله عنه أسيرا فى سنة ١٢ للهجرة ، ولما حضر بين يدى أبى بكر رضى الله عنه قال له : فعلت وفعلت ، فقال الأشعث : استبقنى لحربك ، فو الله ما كفرت بعد إسلامى ولكنى شححت على مالى فأطلقنى وزوجنى أختك أم فروة فأبى قد تبت مما صنعت ، فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته أم فورة — وقد كان تزوجها حين قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخراها إلى أن يرجع — وذهب الأشعث لشدة فرحه إلى سوق الإبل وجعل يعرقب بسيفه كل إبل بالسوق ، فبهت الناس وصاحوا ارتد الأشعث ، فقال الأشعث : لا والله ، ولكن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجنى بأخته ، وهذه وليمتى فأنحروا وكلوا ، ولو كنا ببلادنا لكنت أضعاف هذه ثم دفع للناس أثمان إبلهم ، وأقام فى المدينة وخرج من نسله بنو الأشعث المذكورون فى الدولة الأموية ، وسار إلى العراق غازيا وتوفى فى الكوفة ، وصلى عليه الحسن بعد صالح معاوية ، وفيه يقول عمرو بن معد كرب :

والأشعث الكندي حين سألنا من حضرموت مجنب الذكران

قاد الجياد على وجاها نربا قب البطون نواحل الأبدان

أما المهاجر بن أبى أمية فقد عاد بجيشه إلى اليمن بعد أن هدأت الحال واستتب الأمن ، وخضعت لزياد جميع قبائل حضرموت الوسطى . وعادت إلى الإسلام بنو وليعة ، ولم يبق أحد من المرتدين ، وقد كان من المنتظر أن تجتمع ملوك كندة الذين فى حضرموت الغربية وفى دوعن وفى الشحر للانتقام من زياد ، وليعيدوا لإخوانهم ملوك الشرق سلطتهم وسطوتهم ، على أن الأشعث أرسل رساله إليهم قبيل الحرب ، ولكنهم لم يمدوا به شىء ولم يظهروا أى عداء لزياد وأصحابه ، ولم يعترضوا المهاجر بن أبى أمية حينما مرّ بينهم فى الكسر فى قدومه من اليمن وفى عوده إليها ، ولو قاتلوه لقضوا عليه وعلى جيشه ولعل الروابط بين ملوك كندة فى الغرب والشرق ليست على ما يرام ، أو لعلمهم رأوا أنه ليس من الشجاعة ولا من العدل أن تجتمع ملوك كندة على جماعة قليلة العدد والعدد من سكان شبام والغرفة وسيون وتريم ومريمة ودمون ، يقودهم شيخ ورع صالح تقي قام لا لشهوة فى نفسه ، ولكن لتنفيذ ركن من أركان الدين .

حضر موت تطالب بالخلافة

فى سنة ١٢٩ للهجرة نهض عبد الله بن يحيى الكندى مطالبا بالخلافة لنفسه كان حادّ الذكاء بعيد النظر فصيحاً بليغاً شجاعاً كريماً ، على جانب عظيم من الورع والتقوى والصلاح ، ذهب إلى اليمن فرأى المظالم ضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها ، والفساد ينخر عظام الأمة ويهدد كيائها ، فنقم على الخليفة مروان بن محمد ورماء بالضعف فى السياسة والإهمال فى تأديّة واجبات الخلافة ، ونقم على ولاية اليمن ومكة والمدينة أشد النقم . وفى سنة ١٢٨ ذهب إلى مكة للحج ، فوافى أبا حمزة المختار ابن عوف الأزدى البصرى الخارجى ورآه يدعو إلى خلاف مروان وآل مروان ، فقال له عبد الله بن يحيى الكندى : يا رجل إني أسمع كلاماً حسناً وأراك تدعو إلى حقّ فانطلق معي فإني رجل مطاع فى قومي ، فخرج به حتى ورد حضر موت ، ولما رأى أبو حمزة المختار إجلال الناس لعبد الله بن يحيى الكندى وإكبارهم له بايعه على الخلافة وعاد إلى البصرة . جمع عبد الله بن يحيى عظماء كندة وحرّضهم على الخروج لإزالة المظالم والمنكرات ونشر العدالة والصلاح ، وقال : ما يحلّ لنا المقام على ما ترى ولا يسعنا الصبر عليه ؛ وكتب إلى أبي حمزة المختار وأبي عبيدة ومسلمة بن أبي كريمة مولى بنى تميم وبلج بن عقبة بالبصرة يشاورهم فى الخروج ، فكتبوا إليه : إن استطعت أن لا تقيم يوماً واحداً فافعل ، فإن المبادرة بالعمل الصالح فضل ، ولست تدري متى يأتى عليك أجلك ، والله خيرة فى عباده يبعثهم إذا شاء لنصر دينه ، ويخصّ بالشهادة منهم من يشاء ؛ وشخص إليه أبو حمزة المختار وبلج بن عقبة فى رجال من الأباضية وحرّضوه وقومه على الخروج ، وقالوا لهم : إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا ، واقتدوا بسلفكم الصالحين وسيروا سيرتهم ، فقد علمتم أن الذى أخرجهم على السلطان العيث لأعمالهم ؛ فاجتمعت كندة وبايعت زعيمها عبد الله بن يحيى الكندى على الخلافة إلا ملكهم إبراهيم بن جبلة بن مخزومة الكندى فى دمون فإنه امتنع عن البيعة ، ولكن عبد الله بن يحيى سار إليه فى جماعة من عشيرته وأخذوه وحبسوه يوماً ثم أطلقوه ، فرحل إبراهيم إلى صنعاء . وقام بالأمر عبد الله بن يحيى ، فنشر العدل والأمن ، وبنى المساجد وأطعم الفقراء والمعسرين ، فأحبه الناس وكثر جمعه واحتشد حوله الأنصار والأعوان

وهايته القبائل ، وأكبروا فيه همته وورعه وصلاحه وتقواه ، وسموه طالب الحق . ولما أحس في نفسه القوة للقيام ضد الخليفة مروان بن محمد انتخب من أبطال قومه ألفين وتوجه بهم إلى صنعاء بعد أن استخلف على حضرموت عبد الله بن سعيد الحضرمي فبلغ ذلك القاسم بن عمر عامل مروان على صنعاء ، فاستحلف على صنعاء الضحاك ابن زمل ، وخسرج في بضعة آلاف من جيشه لملاقاة عبد الله بن يحيى الكندي ، فلقينه الكندي في بلج وكان الليل قد أظلم ، وقاتلهم فقتل منهم كثيرا ، وانهمزم القاسم وعسكر قريبا من صنعاء ، فلحقهم الكندي وهزمهم شر هزيمة ، واستولى على صنعاء ، وأخذ الضحاك بن زمل وإبراهيم بن جبلة بن مخزومة الكندي ملك دمون المخلوع وحبسهما ، وجمع الخزان والأموال ، وخرج إلى الجامع وخطب الناس ، فقال بعد أن حمد الله عز وجل وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضينا بالحلل حلالا لا نبغى به بدिला ، ولا نشترى به ثمنا قليلا ، وحرمتنا الحرام ونبتذناه وراء ظهورنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله وإلى الله المشتكى وعليه المعول ، من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب خمر فهو كافر ، ومن شك في أنه كافر فهو كافر . » ندعوكم إلى فرائض بينات وآيات محكمات وآثار مقتدى بها . ونشهد أن الله صادق فيما وعد ، عدل فيما حكم ، وندعو إلى توحيد الرب . واليقين بالوعد والوعد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والعداوة لأعداء الله . أيها الناس ؛ إن من رحمة الله أن جعل في كل فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إذا اهتدى . ويصبرون على الألم في جنب الله تعالى ، يقتلون على الحق في سالف الدهور شهداء ، فما نسيتهم ربهم وما كان ربك نسيا : أوصيكم بتقوى الله وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فابلوا الله بلاء حسنا في أمره وذكره . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

أقام عبد الله بن يحيى الكندي في صنعاء أشهر ١ ، أزال في خلالها المظالم والمفاسد ، ونشر العدل والأمن وأحسن السيرة ، ولان للناس جانبه ، فأحبوه وأثنوا عليه ومدحه الشعراء ، وأنته السراة من كل أرجاء اليمن . وفي أواخر شهر ذي القعدة سنة ١٢٩ للهجرة

جهز سبعة رجل من جيشه وأرسلهم إلى مكة تحت قيادة أبي حمزة المختار وبلغ بن عقبة وأبرهة بن الصباح ، فراسلهم عبد الواحد بن سليمان وهو يومئذ على مكة المدينة ودعاهم إلى الهدنة حتى ينفر الناس النفر الأخير من الحج ، فأجابه أبو حمزة إلى ذلك ، ثم نزل عبد الواحد بن سليمان بمنى ، وبعث إلى أبي حمزة المختار عبد الله بن حسن ابن الحسن ومحمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد وعبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، فكشروا في وجه العلوى والعثماني ، وانبطوا إلى البكرى والعمرى ، وقال لهما : ما خرجنا إلا بسيرة أبيوكما . فقال له عبد الله بن حسن : ما جئنا للتفضيل بين آبائنا وإنما جئنا برسالة من الأمير .

ولما كان النفر الأول مضى عبد الواحد بن سليمان إلى المدينة ، وخلق مكة لأبي حمزة المختار ، فدخلها بدون قتال ، وحين أقبل أبو حمزة على مكة ، فرع الناس حين رأوهم وحاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، فقال لهم أبو حمزة خلوا لنا سبيلنا لنسير إلى من ظلمكم وجار في الحكم عليكم ، ولا تجعلوا حدنا بكم ، فإننا لا نريد قتالكم . وأخبرهم بخلافة مروان والتبري منه .

أما عبد الواحد بن سليمان فإنه لما وصل إلى المدينة كتب إلى مروان يعتذر لخروجه من مكة ، فكتب مروان إلى عامله على المدينة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز يأمره بإرسال الجيش إلى مكة لاستردادها من أيدي جيش أبي حمزة . فجهز عبد العزيز ثمانية آلاف رجل أغلبهم من التجار لاعلم لهم بالحرب . ولما بلغ ذلك أبا حمزة المختار استخلف على مكة إبراهيم بن الصباح . ولما كان على مقربة منهم أرسل إليهم بلج ابن عقبة في ثلاثين فارساً من أبطال كندة وتميم . ولما جاءهم سألمهم أن يطيعوا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يكفوا عنهم ويعودوا من حيث أتوا ، فشتهم أهل المدينة وقالوا لهم : يا أعداء الله نحن نخليكم وندعوكم تفسدون في الأرض ؛ فقال بلج : يا أعداء الله نحن نفسد في الأرض ، إنما خرجنا لتكف أهل الفساد ونقاتل من قاتلنا ونستأثر بالقي ، واخلعوا من لم يجعل الله له طاعة ، فإنه لا طاعة لمن عصى الله ، وادخلوا في السلم وعاونوا أهل الحق ، ثم رجع بلج وأصحابه إلى أبي حمزة المختار

وأخبره . فقال : كفوا عنهم ، ولا تقاتلوهم حتى يبدعوكم بالقتال . فرمى رجل من أهل المدينة أبا حمزة بسهم فأخطأه وأصاب رجلا آخر ، فقال أبو حمزة : شأنكم الآن فقد حلّ قتالهم ، فحملوا عليهم حملة شديدة وهزموهم وقتلوا منهم ٣٢٣٠ ومن قریش ٤٥٠ رجلا ومن الأنصار ٨٠ ومن القبائل والموالى ١٧٠٠ ، فقال على بن الحصين الكندى لأبي حمزة : اتبع القوم أو دعني أتبعهم ، فأقتل المدبر وأذفف على الجريح ، فإن هؤلاء شرّ علينا من أهل الشام . فلو جاءوك غدا لرأيت من هؤلاء ما تكره ، فقال له : لا أفعل ولا أخالف سيرة أسلافنا ، ثم استولى أبو حمزة على المدينة وذلك سنة ١٣٠ للهجرة .

ولما همدأت الأحوال وخمدت الاضطرابات ، خرج أبو حمزة إلى الجامع وخطب الناس فقال بعد الحمدلة والثناء على الله : « أتعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرا ولا بطرا ، ولا عبثا ولا لهوا ، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ، ولا ثأر قديم نبيل منا ، ولكننا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت ، وعتف القاتل بالحق وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، فأجبنا داعي الله ، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، فأقبلنا من قبائل شتى ، نفرمنا على بعير واحد ، عليه زادهم وأنفسهم ، يتعاورون لحافا واحدا قليلون مستضعفون في الأرض ، فأوانا الله وأيدنا بنصره ، وأصبحنا والله بنعمته إخوانا ؛ ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم مروان وآل مروان ، فشتان لعمر الله ما بين الغي والرشد ، ثم أقبلوا يهرعون ويزفون ، قد ضرب الشيطان فيهم بحجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه ، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب بكل مهتد ذي روثق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبتلون . وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، ويشف صدور قوم مؤمنين . يا أهل المدينة إن أولكم خير أول وآخركم شر آخر . يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم ، إلا مشركا عابدا وثن أو كافرا من أهل الكتاب أو إماما جائرا . يا أهل المدينة من زعم أن الله كلّف نفسه فوق طاقتها أو سألها عما لم يؤتمرها فهو لله عدو ولنا حرب ؛

يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوى على حبه للضعيف ، فجاء التاسع وليس له منها ولا سهم واحد ، فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه ما يقولون فيه وفيمن عاونه على فعله ؟ يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي ، قلتم هم شباب أحداث وأعراب جفاة ، ويحكم يا أهل المدينة ، وهلى كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا أحداثا ، شباب والله مكتملون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقلية عن الباطل أقدامهم ، قد باعوا أنفسهم تموت غلنا بأنفس لا تموت أبدا ، قد خلطوا كلالهم بكلالهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفا من النار ، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقا إلى الجنة ؛ فلما نظروا إلى السيوف قد انتصبت وإلى الرماح قد أشرعت وإلى السهام قد فوّقت ، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت استخفوا وعيد الكتيبة عند عيد الله ، ولم يستخفوا وعيد الله عند عيد الكتيبة ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها من خشية الله ، وكم من يد أبيت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راکعا وساجدا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله من تقصيرنا - وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وقال هارون إن جدّه أبا حمزة قد أحسن السيرة في أهل المدينة حتى استمال للناس وسمع بعضهم كلامه في قوله على منبر النبي صلى الله عليه وسلم من زنى فهو كافر ، وقال : إنه سمع أبا حمزة يخطب بالمدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل المدينة مالى رأيت رسم الدين فيكم باقيا وآثاره دارسة ، لا تقبلون عليه عظة ، ولا تفقهون من أهله حجة ، وقد بليت فيكم جدته ، وانطمست عنكم سنته ، ترون معروفة منكرا والمنكر من غيره معروفا ، إذا انكشفت لكم العبر وأوضحت لكم النذر ، عميت عنها أبصاركم ، وصمت عنها أسماعكم ، ساهين في غمرة لاهين في غفلة ، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نشر ، وتنقبض عن الحق إذا ذكر ، مستوحشة من العلم مستأنسة بالجهل ، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق تفورا ، تحملون منها في صدوركم كالخجارة أو أشدّ قسوة من الحجارة ، أو لم تلن لكتاب الله الذى لو أنزل على جبل لرأيت به خاشعا متصدعا من خشية الله . يا أهل المدينة ما تغنى عنكم صحة أبدانكم إذا

سقت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء غالبا يتقاد له ويطيع أمره ، وجعل القلوب غالبية على الأبدان ، فإذا مالت القلوب ميلا كانت الأبدان لها تبعاً ، وإن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحتها ، ولا يصححها إلا المعرفة بالله وقوة النية ونفاذ البصيرة ، ولو استشعرت تقوى الله قلوبكم لاستعملت بطاعة الله أبدانكم . يا أهل المدينة داركم دار الهجرة ومثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نبت داره وضاق به قراره وآذاه الأعداء وتجهمت له فنقله إلى قوم لعمري لم يكونوا أمثالكم ، متوازين مع الحق على الباطل ، ومختارين للآجل على العاجل يصبرون للضراء رجاء ثوابها ، فنصروا الله وجاهدوا في سبيله وآدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، وآثروا الله على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ، قال الله تعالى لأمثالهم ولن اهتدى بهداهم « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، وأنتم أبناؤهم ومن بقى من خلفهم تركة أن تقتدوا بهم أو تأخذوا بسنتهم . عسى القلوب صم الآذان ، اتبعتم الهوى فأرداكم عن الهدى وأسهاكم ، فلا مواعظ القرآن تزجركم فزدجروا ، ولا تعظكم فتعتبروا ولا توقظكم فتستيقظوا . لبئس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم ، ما سرتهم بسيرتهم ، ولا حفظهم وصيتهم ولا احتذيتهم مثالمهم ، لو شقت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم .

لما بلغ مروان بن محمد انتصار الأباضية واستيلائهم على المدينة خاف أن يزحفوا على الشام ويستولوا عليها ويتولوا الخلافة لذلك جمع ٤٠٠٠ رجل من أبطال جيشه ، وأعطى كل منهم مائة دينار وفرسا ووعدهم ، وجعل عليهم عبد الملك بن عطية ، ولما بلغ أبا حمزة الخبر بعث بلج بن عقبة فى سماية من عسكره فالتقى الجيشان فى وادى القرى فى شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠ للهجرة ، فدعاهم بلج إلى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فشتهم أهل الشام وقالوا نحن على حق وأنتم على باطل ، فثارت الحرب بين الطرفين ودامت ثلاثة أيام ، فقتل بلج بن عقبة وسبعون رجلا من جيشه ونصب عبد الملك بن عطية رأسه على رمح ، أما أبا حمزة فقد استخلف على المدينة أحد أعيانها يقال له الفضل ، وسار إلى مكة ليحصنها ، ولما علم عبد الملك ابن عطية بخروج أى حمزة من المدينة جمع رجاله وهجم على المدينة ، فدعا الناس

عمر بن عبد الرحمن بن أسيد الخطاب لقتالهم ، فاجتمع إليه تجار المدينة والبربر والعبيد وخرجوا لمقاتلة ابن عطية ، فانهزموا شر هزيمة ، وقتل الفضل وكثير من رجاله ، واستولى ابن عطية على المدينة ثم سار إلى مكة ، فلقه أبو حمزة بالقرب من مكة ، وأراد جيشه المهجوم على ابن عطية وقومه فنعمهم وقال : لا تقاتلوهم حتى تختبروهم ، فصاح بهم ما تقولون في القرآن والعمل به؟ فقال ابن عطية : نضعه جوف الجوالق ، قال ما تقولون في مال اليتيم ؟ قال نأكل ماله ونفجر بأمه ، فأمر أبو حمزة جيشه بالقتال ، فقتل أبو حمزة وقتلت امرأته مريم ، وكانت ذات شجاعة وإقدام ، وأسر ابن عطية ٤٠٠ رجل من جيشه ثم قتلهم جميعا ، ولما بلغ ذلك عبد الله بن يحيى الكندى خرج من صنعاء في جماعة من أصحابه ومن الإمانيين لقتال ابن عطية ، فالتقى به بأسفل مكة ، فهزمهم أهل الشام وأكثروا فيهم القتل ، فترجل عبد الله بن يحيى الكندى في ألف فارس وأظهروا من الشجاعة والإقدام ما حير عقول أهل الشام ، وكاد النصر يكون لحليفهم لولا كثرة جيش ابن عطية التي أحاطت بهم من كل جانب ، وطال القتال حتى قتلوا رجال الكندى جميعا ، وجز ابن عطية رأس الكندى وبعثه مع ابنه يزيد ابن عبد الملك بن عطية إلى مروان .

وسار ابن عطية إلى صنعاء واستولى عليها وأرسل جيشه يتبع أصحاب عبد الله ابن يحيى الكندى ويقتلهم ، ثم ظهر يحيى بن كرب الحميرى وأعلن العصيان والتمرد على ابن عطية ، وخرج عليه وانضمت إليه قبيلة شداد الأباضية ، فخاف ابن عطية أن يستفحل أمرهم ويتسع نفوذهم وتتقوى سطوتهم ، فأسل لقتالهم جيشا تحت قيادة أبي أمية الكندى في الوضاحية ، فالتقوا بهم بالساحل على مقربة من الحديدية وقتلوا من الأباضية مائة رجل ، وهرب بعضهم إلى حضرموت والتجئوا بعبد الله بن معبد الحضرمي وحرصوه على ابن عطية ، فصاح عبد الله بن معبد في قبائل حضرموت ، فأثاه خلق كثير من كندة ونهد وتميم وحمدان واحتشدت الجموع في شبام ، وامتلأت مخازنها بما تبرع به الأغنياء وأهل اليسار من البلح والطعام وغير ذلك للجيش . ولما بلغ ابن عطية الخبر استخلف ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد بن عطية على صنعاء وتوجه بجيشه إلى حضرموت فلقه الحصارم بالكسر والتحمت بينهم الحرب ، وكان جيش الشام عالما بفنون الحرب ، ولما جاء الليل وكان حالك الظلام كثير الرياح أرسل ابن عطية من ناحية

الجبل الجنوبي جزءا من جيشه إلى شبام لاحتلالها ونهب ما فيها من الذخائر والمؤن ، فوصل هذا الجيش إلى شبام عند مطلع الفجر وتسوروا السور واحتلوا الحصون وقتلوا من فيها من الحرس ، فاستيقظ الناس من مراقدهم وذعروا مما رأوا ، وحاولوا الدفاع عن أنفسهم وأموالهم فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، وأتى لهم أن يدافعوا والحصون في يد العدو يمنع كل من أراد الدخول إلى شبام أو الخروج منها . حدث ذلك كله دون أن يعلم عبد الله بن معبد الحضرمي . ولما طلع النهار قاتل عبد الله بن معبد بن عطية حتى انتصف النهار ، ثم تهاجروا ، ولما جاء الليل ووضعت الحرب أوزارها انسلاّ ابن عطية وبقية جيشه إلى شبام .

ولما بزغ النهار لم ير الحضارم أثرا للعدو ، فأدركوا المكيدة وهرعوا إلى شبام فوجدوها محتلة بالعدو ، وحاولوا إخراجه فلم يقدروا . ثم اضطروا للاستسلام ولكن ابن عطية جعل يقتل من يقدر عليه وينهب الأموال قهرا . ثم أراد أن يرسل جيشه إلى سيون وتريم ودمون ولكن مروان بن محمد بعث إليه كتابا يأمره بالتعجل إلى مكة ليحج بالناس ، فجمع ابن عطية أعيان شبام ، وصالحهم على أن يرد إليهم ما عرفوا من أموالهم ، ويولى عليهم من يختارون فأجابوه إلى ذلك ، ثم سار متعجلا في جماعة من قومه . ولما كان بأرض مراد لقبه جماعة من الأباضية وقتلوه ومن معه ، ويقول المدائني إنه لما شخص ابن عطية إلى مكة خرج إليه جماعة وسعيد ابنا الأخنس في جماعة من قومهما ورجل من نهد يقال له رمانة وثلاثة من مراد وخمسة من كندة ، فقصدوا حيث توجه ابن عطية فأدركوا أصحابه وكانوا أربعين رجلا فقتلوهم جميعا وأدرك سعيد وجماعة ابن عطية فضرباه وطعناه وصرعاه من فرسه وقعد سعيد على صدره فقال له ابن عطية هل لك يا سعيد في أن تكون أكرم العرب أسيرا ، فقال يا عدو الله أترى الله كان يمهلك أو تطمع في الحياة وقد قتلت طالب الحق (عبد الله بن يحيى الكندي) وأبا حمزة وبلغا وأبرهة ، ثم قتله وبعثوا برأسه إلى شبام وبلغ الخبر ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد بن عطية وهو بصنعاء ، فأرسل شعبيا البارقي في جيش كثير أغلبه أجلاف قساة همج من سكان جبال اليمن ، وجاءوا حضرموت من طريق الكسر ، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان ونهبوا الأموال وأخرجوا دورهين وقعوضة والخينيق وحورة وكثيرا من

دور شبام ولم يبق أحد من قتلة ابن عطية ولا من الأباضية إلا وقتلوه ، ثم عادوا إلى اليمن حاملين معهم الأموال الطائلة والحلى الثمينة وقد احمرت أراضي حضرموت من الكسر غربا إلى شبام شرقا بالدم .

انكماش دولة كندة

كان خروج شعيب البارقي بجيشه الهمج إلى حضرموت أشبه بالضربة القاضية على الدولة الكندية والصدمة الرجعية في الأهلين ؛ ولاغربة فإن قتل الصبيان وبقر بطون النساء من الأموال العظام والخطوب الجسام أهوال لم يعهدها الحضارمة من قبل ولم يحدث في تاريخهم الواعل في القدم . انكمش ملوك كندة وقبع كل منهم في مقاطعته بحكم في هدوء وسكون وفي خمول وكسوف ، وكره الشعب التخاصم والتنازع وكل ما يجرهم إلى التناحر والتصادم ، وكأن تلك الفجائع التي أتتهم من اليمن علمتهم كيف يتعاونون ويتناصرون ويتكاتفون ويتساندون ، كأنها وجهت أنظارهم إلى إصلاح أمورهم وتنظيم شئونهم ، فقد اتحدت قبائل دوعن ووجهوا عنايتهم نحو عمارة أرضهم و عمران بلادهم وتنظيم معاشهم ، وكذلك الشأن في حضرموت الوسطى ، فقد هب جميع السكان يصلحون ويعمرون وخضعوا لولاية أمورهم كل الخضوع ، وأطاعوهم كل الطاعة رغبة في السكون وحبا في السلام ، فأصبحت الأراضي جنات غناء ومزارع فيحاء ، بفضل التعاون والتساند في تعميرها وزراعتها ، وانتشر الرخاء ورخصت الأسعار ، وتنشطت أسواق العروض وهين وشبام وتريم ودمون وزادت حركتها ، وعادت إليها حياتها الأولى ، وأصبحت القوافل تأتي الواحدة تلو الأخرى من ظفار واليمن وحبان وبيحان وشبوة بأنواع المتاجر وأصناف السلع فعظمت أرباح التجار وتضاعفت مكاسبهم واتسع نطاق ثرواتهم ، اتساعا ما كانوا يحلمون بمثله من قبل .

دخول حضرموت في طاعة العباسيين

في سنة ٢١٣ للهجرة انتشرت دعوة العلويين باليمن واتسع نطاقها وخاف اليمنيون عاقبة تلك الدعوة ، وما ستجلبه لهم من البلايا والزيا ، فأرسلوا وفدا من صفوة عقلائهم

إلى الخليفة المأمون ، وكان في مقدمة هذا الوفد محمد بن زياد بن عبد الله بن زياد ابن أبي سفيان ، فاستعطف الخليفة وضمن له صيانة اليمن من العلويين ، فوصله وولاه على اليمن وقضى على دعوة العلويين وفتح تهامة ، وبسط حكمه على جميع بلاد اليمن ، وأرسل رسله إلى حضرموت يأمر الولاة بالدخول في طاعة العباسيين فأجابوه إلى ذلك ، ولما مات ولي بعده ابنه إبراهيم ، ثم ابنه زياد بن إبراهيم ، ثم أخاه أبو الجيش إسحاق ابن إبراهيم ، وفي كل أيام هؤلاء الولاة ظلت حضرموت في طاعة العباسيين ، ولكن هذه الطاعة كانت اسما إذ لم يولوا على الحضرميين أحدا منهم يحكم البلاد بالنيابة ، فكان الحضرميون يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، ولما قتل المتوكل سنة ٢٤٧ وخلق المستعين سنة ٢٥٢ ، واستبد الموالى على الخلفاء خلعت حضرموت طاعة العباسيين ، واستقلت كل الاستقلال في جميع شئونها الداخلية والخارجية ، واستمر الحضرميون ينظمون أمورهم في هدوء ، ويعمرون بلادهم في سكون ، أينما اليمن تموج بالفتن الداخلية ، وتنفذ من الاضطرابات والقتال ، فقد ظهر هناك يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا بدعوة الزيدية ، واستفحل أمره ، وهجم على صنعاء واستولى عليها قهرا بالسيف .

الحضارمة والهجرة

الحضارم من أقوى أمم الأرض على الأسفار ، وأكثرها صبرا على تحمل المشقات ، ولعوا بالأسفار من قديم - وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل - وقد استمرت هجرتهم إلى ما بعد ظهور الإسلام ، ثم انكشت وانقطعت لاشتغالهم بالحروب في عهد عبد الله ابن يحيى الكندى وابن عطية وشعيب البارقي ، وانصرفهم بعد ذلك إلى إصلاح شئونهم الداخلية وتنظيم معاشهم وتعمير بلادهم . ولما هدأت الأحوال وانتظمت الشئون وانتشر الأمن في طول البلاد وعرضها ، وكثر عيب وزكا الزرع وأثمر وأينع ، ونشطت الأسواق وعظمت الأرباح للتجار وازدادت الثروة واتسع نطاقها ، اتجهت أنظار الحضرميين إلى الهجرة من جديد ، وطمحوا في توسيع تجارتهم وتوطيد ثروتهم ، فهبوا يهاجرون أفرادا وجماعات ، وكان

هؤلاء المهاجرون طائفتين : طائفة اتجهت نحو الشمال (مصر والبصرة وبغداد والأندلس) وأخرى ولت وجهها شطر جنوب الهند وسواحل أفريقيا الشرقية ؛ أما الأولى فلطلب العلم ولذكائهم واجتهادهم برزوا في علوم اللغة العربية والدين ، ولعبقريتهم وعصاميتهن نالوا القضاء في دمشق ومصر والأندلس ؛ وأما الثانية فلغرض تجارى محض ، ولكن بالرغم من اشتغالهم بالتجارة فقد نشروا الإسلام بين أهالى تلك الأصقاع النائية ، وبنوا المساجد وأنشأوا المكاتب لتعليم النشء القرآن الكريم ، ولأمانتهم ومعاملتهم الحسنة مع الأهلىن احترمهم الناس وعظموهم واتخذوهم أنصارا لهم وأعوانا فى شئونهم الخاصة والعامة ، فتوطد بذلك مركز الحضارة وعظم شأنهم وعلا مقامهم وذاع صيتهم ، وكانت كلمتهم مسموعة وأمرهم نافذا ، ولو كانوا أرادوا إرادوا الملك لجاءهم يمشى على قدميه ، ولكنهم كانوا لا يريدون إلا التجارة ، ولقد اندمج بعضهم فى الأهالى وتزوجوا منهم وتخلقوا بأخلاقهم ، وألفوا عاداتهم ؛ فضاعت منهم عروبيتهم وحضرميتهم ولغتهم العربية . وأصبحوا كأفراد الأهالى فى عاداتهم وأخلاقهم وملاحمهم ولغتهم حتى اعتبرتهم ولايات تلك البلاد من الأهلىن ، تعاملهم كما تعامل الوطنيين ، وتمنحهم من الحقوق والواجبات ما تمنح هؤلاء .

وفى الجزء الثانى بيان عن هجرة الحضارة إلى مصر والشام وإلى جزائر جاوة وسائر بلاد الشرق الأقصى ، كما أننا سنتكلم فيه على هجرة بنى هلال من حضرموت إلى طرابلس الغرب وشمال إفريقيا :

نهضة حضرموت العلمية

والحضرمي حادّ الذكاء قويّ الذاكرة سريع البداهة كثير النباهة ، مستعدّ كل الاستعداد للرقى ومجازاة روح كل زمان ومكان في العلم والأدب والحضارة والاجتماع نشيط مجتهد وقرر صبور على مكافحة المتاعب وتحمل المصائب مهما تفاقم خطبها وعظم شرها ؛ يقطع الفيافي والقفار ويمخر عباب البحار لطلب علم واكتساب مال ، تاركاً وراءه الأهل والعشيرة والصحب والديار ؛ ولقد كان أغلب الذين هاجروا إلى الشمال لم يكن لديهم من الزاد إلا ما يوصلهم إلى حيث يقصدون ، وليس لهم غاية سوى العلم ، ولكن كانت عبقريتهم بارزة وعصاميّتهم عالية ، فقد كوّنوا أنفسهم بأنفسهم ، وخلقوا لهم مركزاً من العدم ، وأوجدوا لهم اسماً بعد الخمول ، وتبعوا من العلم والسؤدد مقعداً عليّاً ، وهم مع كل ذلك مثال الخلق الكريم وحسن العشرة والوفاء بالعهود والصدق في القول والإخلاص في العمل ، لذلك أشير إليهم بالبنان ، وحفظت أسماءهم الككب وبطون الأوراق .

كان لنهضة بغداد العلمية وللبحوث في المسائل الدينية والفلسفية أيام المأمون صدى عظيم في حضرموت وأثر حسن من الحضرميين ، ولكن لم تظهر هناك أفكار شاذة وآراء غريبة ، كالقول بخلق القرآن وتناسخ الأرواح ، وإنما كان همهم مقصوراً على تعلم اللغة العربية والدين ، وقد بدأت الحركة العلمية في تريم ومنها تسرّبت إلى شبام فإلى الهجرين ثم إلى الشحر ، وكانت تلك الحركة في بدايتها تخطو خطوات بطيئة قصيرة ، وكان العلماء ينشرون علومهم في صورة محاضرات ومواعظ يلقيونها في المساجد والجوامع ، وفي أواخر القرن الثالث ازدادت الحركة العلمية واتسع نطاقها وأقبل الأهلون على مختلف طبقاتهم يطلبون العلم بشغف وولع ، الأمر الذي جعل أولئك العلماء ينشئون مكاتب خاصة للتعليم في تريم وسيون والغرفة وشبام وهينن والهجرين ودوعن والشحر ، وكان أغلب هؤلاء العلماء يعلمون الناس العلم دون أن يأخذوا على أتعابهم أجراً ، على أن منهم من يجوب البلاد ويقطع المسافات الطويلة

لنشر العلم ، وكان الناس يتعلمون المعرفة لذات المعرفة ، إذ لم تكن هناك وظائف توزع على المتعلمين ولا جوائز تمنح للشعراء والأدباء والراشقين ؛ ولقد اشتهرت تريم بتقديم العلم فيها وكثرة العلماء والأدباء ، وولع سكانها بالبحوث والمناقشات الدينية والمناظرات الأدبية ، ولقد تصدّى كثير من العلماء للفتوى ، فكانت المسائل والمشاكل الدينية ترد إليهم من كل أرجاء البلاد ومن عدن ومن اليمن ، وكان طلبة العلم كبارا وصغارا يؤمون مدينة تريم من كل أنحاء حضرموت ومن عدن وصنعاء وزيد ، فأصبحت تريم تـمـوج بالطلبة والعلماء والأدباء والفضلاء ، وبالرغم عن كثرة هؤلاء ، فقد كانوا على وفاق ووثام ولم يحدث بينهم ما يحدث عادة بين كثير من العلماء من التنافس على الفتوى والتخاصم على الشهرة ، والسعى لإسقاط بعضهم بعضا بالوشاية والنميمة والطعن ؛ وحينما تقدم لأحدهم مسائل هامة ، فإن كانت فوق مستواه وليس في مقدوره الفصل يدعو بعضا من زملائه العلماء للنظر فيها والمشاركة في البحث ، ومبادلة الآراء والتشاور ، هكذا كان التواضع بينهم سائدا ، والتساند شائعا ، لا يتكبر زيد على عمرو ولا يفتخر بكر على خالد ، ولم ينبئنا التاريخ أن خلافا كبيرا حصل بينهم ، كما أنه لم يثبت لنا أنهم خالفوا في فتاويهم الكتاب والسنة ، أو انحازوا في أحكامهم إلى زيد دون عمرو بلجأه أو ماله أو قوته ، بل الناس عندهم سواسية لافرق بين غنى وفقر ، ولا بين قوى وضعيف ، ولا بين متسلح وأعزل ، وليس للنسب والحسب عندهم قيمة وإنما كانوا يفضلون الشخص لعلمه وتقواه أية كانت حرفته ، ولم يتظاهر أحد منهم بالسلطة الروحية أو سعى إليها ودعا الناس إلى التبرك به والتوسل إليه ببيع العزائم والتمايم كما يعمل الدجالون ومشايخ الطرق ، بل كانوا على جانب عظيم من العفة وعزّة النفس ، وكان لأغلبهم متاجرير تزقون منها ويعتمدون عليها في ضرورياتهم الحيوية ؛ وما يؤخذ على هؤلاء العلماء أنهم لم يهتموا بالتدين كثيرا ولم يؤلفوا الكتب مع سعة علومهم ومقدرتهم على الكتابة ، ولو فعلوا لكان فضلهم عظيما ومعروفهم جسيما ، ولكان الخلف انتفع بعلومهم أكثر مما انتفع بها معاصروهم ، وليس بين أيدينا علو نعتهم به على ما فرطوا في التدوين .

خروج آل باعلوى إلى حضر موت

في سنة ٣١٧ للهجرة جاء من البصرة الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى، وأقام بالحسيمة ثم انتقل منها هو ومن معه إلى قارة جشيب ، ثم انتقلوا إلى بيت جبيرة في سمل ، وهناك احتفروا بئرًا عرفت ببئر أحمد ، ثم انتقلوا إلى تريم وفيها بنوا مسجدهم المعروف بمسجد أحمد ، وتوفي الشيخ أحمد بن عيسى باعلوى بالحسيمة ، وقد اشتهر بالصلاح والورع والإخلاص في النصيح للناس ، وقد رأى العلويون من بعده أن يكونوا لهم مركزا يكون أساسه السلطة الروحية ، ولقد ساقهم إلى ذلك ماشاهدوه في كثير من الحضارم من السذاجة وحسن النية وسلامة الطوية ، قالوا لهم من سلاله الرسول ١ ، وحين شك الحضارم في أمرهم اضطّر آل باعلوى أن يبعثوا واحدا منهم إلى البصرة ليأتي بشهادة قاضيا فيما قالوا ، فرحل الشيخ علي بن أحمد بن جديد إلى البصرة وطلب إلى القاضي إثبات نسبهم ، فأجابهم إلى ذلك وشهد معه جمع ممن يريد السفر إلى الحج ، فسافر هو وأولئك الحجاج إلى مكة ، ورقب هناك حجاج حضر موت على أولئك الشهود ، ثم سافر إلى حضر موت وقدم شهادة قاضي البصرة وبعض الحجاج البصريين إلى العلماء ، فرفضها كثير من الناس لعدم استنادها إلى براهين تاريخية ، واعترف بها وصحح عليها بعض العلماء كالقاضي عبد الرحمن بن علي بن أبي حسان ، والعلامة الشيخ فضل بن عبد الله بن فضل ، والعلامة الشيخ محمد بن أحمد بن أبي الحب والعلامة الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي والعلامة الشيخ محمد بن أبي بكر عباد والعلامة الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن سالم المرواني التريمي .

لقد بذل آل باعلوى كل مستطاع في توطيد مركزهم الروحي ، وتظاهروا بالصلاح والتقوى وعملوا بكل ما عرفوا به من الدهاء لجلب الناس إلى تقديسهم والتبرك والتوسل بهم ، ولقد نجحوا في ذلك وفازوا بالسلطة الروحية دون غيرهم ، وتضاءلت سلطة العلماء الدينية أمام سلطتهم الروحية ، ولقد توطدت هذه السلطة وتوغلت عروقها في أحشاء الشعب الحضرمي حينما شرع بعض آل باعلوى يبنون

(١) راجع صفحة ٤١٣ في المجلد الثاني من الجزء الأول من كتاب « قلائد النحر في وفيات أعيان الدهر » للعلامة ابن خزيمة الحضرمي الموجود بدار الكتب المصرية .

القباب^١ على بعض موتاهم رحمهم الله ، ويدعون الناس إلى تقديس تلك المقابر والتوسل بها ، وتقديم النذور والقرايين لها ، هكذا أصبح الحضارم يقدسون آل باعلوى الأحياء منهم والأموات ، ويتبركون بهم ويتوسلون إليهم في قضاء الحاجات ، ويقدمون القرايين والنذور لموتاهم رحمهم الله لطلب الرزق وإطالة العمر وإزالة المرض وغفران الذنوب ودفع الخطوب وتفريج الكربات وغير ذلك من الأمور ، مما يمقته الدين والعقل ويصرح ببطلانه الكتاب والسنة ، وتأباه النفوس العلية ، وتنفر منه الطباع السليمة .

ثم إنهم لم يكتفوا بذلك ، فقد ألف بعضهم كتباً لتضليل عقول الناس وتسميم أفكارهم بما يقصونه عليهم من الحكايات الخرافية والدعاوى الكهنوتية وعلى رأس تلك الكتب « المشرع الروى » ، ولم يقفوا عند ذلك الحد ، لم يقنعوا بتضليل عقائد الشعب الحضرمي وتسميم أفكاره ، لم يقنعوا بما نالوه من السلطة الروحية ، بل طمحت نفوسهم واشربت أعناقهم إلى أكثر من ذلك ، طمحووا إلى الملك فلبعوا في السياسة أدواراً هامة سنذكرها في غير هذا المكان .

انحلال دولة كندة

كان انصراف الحضرميين إلى تنظيم شئونهم وإصلاح أحوالهم وتعمير بلادهم واشتغالهم بالعلم وولعهم بالأسفار من أعظم الأسباب التي كرهت الحروب إليهم ، وجعلتهم يمتقون الفن والحن والقلقل والزلازل ، ويميلون كل الميل إلى الهدوء والسكون ، وقد قبع ملوك كندة في قصورهم ، ولم يجلدوا من الظروف والمناسبات

(١) لم يكن آل باعلوى وحدهم الذين بنوا القباب ، وإنما شاركهم في ذلك آل عباد وآل باوزير وآل عمودي . وما يسرنا أن أغلب آل عمودي وآل باوزير قد تهذبت عقولهم وتنورت أفكارهم وأصبحوا يدعون الناس إلى ترك الخرافات والثرهات ، ونبيذ التوسل بالقبور والأحجار والأشجار والعزائم والتمائم والتولة أصبحوا يدعونهم إلى صدق اليقين والثقة بالله وحده ، ونشر المساواة بين طبقات الشعب بفضل انضمامهم إلى جمعية الإصلاح والإرشاد ، كما أن بعضاً من آل باعلوى وهم جماعة من آل حيشي نحو ذلك السبيل وضمو أصواتهم إلى أصوات دعاة الإصلاح والمساواة الشرعية . ولآل إسحاق وآل باجابر سلطة روحية أيضاً ، ولكنها في الدرجة الثانية ، ولقد عرف آل إسحاق بحب الإصلاح بين القبائل المتسلحة ، كما شاهدنا ذلك في نواحي حضر موت الوسطى حيث يقيمون .

ما يساعدهم على الظهور كما كانوا من قبل يعثون الجيوش ويخرجون بها في ساحات الحروب ، وأمسوا لا يفكرون في توسيع سلطتهم وتقوية مركزهم ، وكأنهم رغبوا عن الملك ، أو كأنهم كانوا آمنين على بقاء ملكهم ، فتساهلوا في حفظ سلطتهم كل التساهل ، وتغافلوا عن حماية نفوذهم كل التغافل ، وناموا نوما عميقا ، ولم يعلموا أن الملك كالشجرة إذا لم يتعهدها صاحبها بالسقي تذبل وتموت .

ظهر في كل مدينة وفي كل قبيلة أفراد أولو شخصيات بارزة وآراء صائبة وعقول نابهة ، فكان الناس يلجئون إليهم في حل المشاكل وإزالة المخاضات ، ويهتدون بأرائهم في أمورهم الخاصة منها والعامة ، تاركين الملوك وراءهم ظهريا . مرت عشرات السنين على تلك الحال ، وخلف بعد أولئك الملوك خلف كانوا أعمق منهم نوما وأكثر خجولا وركودا ، انفصلت عنهم جميع قبائل نهد واستقلت كل الاستقلال ، وأصبحوا يتحاضرون في مشاكلهم إلى رجل أو رجال منهم ، وكذلك الشأن في شرق حضرموت فقد خلعت الطاعة تميم وهمدان ومن يلحق بهم كالعوامر وآل باجري ، واستقلوا في جميع شئونهم الاستقلال التام ، وكذلك الحال عند العوابة والجددة وجميع قبائل دوعن ووادي عمد . هكذا تلاشت دولة كندة وتداعت أسسها وانحلت أركانها وهوى نجمها وطمس نورها وأمسى مركز ملوكها في دمون وشبام وهين والمجربين وعندل والشعر كمركز رؤساء القبائل ، وربما كانوا بدون هؤلاء في السلطة والقوة والنفوذ ، ومما زاد الطين بلة والحرق اتساعا ، هجرة بعض رجالات كندة إلى الشام وبغداد ومصر والأندلس والمغرب ، وترك بعضهم السلاح كآل باكثير ، واشتغلوا بالعلم والأدب .^١

إمارة آل راشد

بنو راشد بطن من حمير هاجروا من اليمن في القرن الثالث الميلادي بعيد سيل العرم

(١) كثير من القبائل الحضرمية كآل مرتع وآل باكثير وآل إسحاق وآل بإجابر هم من كندة ، وكذلك أغلب سكان حورة وهين من آل نجيب وبنو الحارثة الكنديين ، وإنما ترك بعضهم السلاح لا شغلهم بالعلم والتجارة ، وكذلك الشأن في أواخر الدولة الحميرية ، فإذ بعض قبائل حمير كآل كلال وآل شراويل وبعض بيوتات في شبام التي تنحدر من بني فهذ تركوا السلاح لا شغلهم بالتجارة والأسفار .

إلى الشحر ، ثم إلى عندل وهين ثم إلى شبام وتريم ، وكانوا أهل زهد وورع ، ولشدة حبهم للخير وحرصهم على الحق اتخذهم الناس ملجأ يلجئون إليهم للفصل فيما هم فيه مختلفون ، فكان آل راشد مع قلة عددهم ومع أنهم ليسوا من أرباب المال يتصدون للحكم بين المتخاصمين والمتنازعين ، ولقد ذاع صيتهم وانتشرت شهرتهم في أرجاء البلاد ، وصاروا يضرب بهم المثل في العدل ، ولذلك كان يهرع إليهم المتخاصمون من مسافات بعيدة تولوا الإمارة ١ وكان سلطانهم الأعظم العالم الجليل عبد الله ابن راشد بن أبي قحطان الحميري ، ولد بتريم سنة ٥٥٣ هجرية فرباه أبوه تربية دينية . تعلم القرآن الكريم وحفظه ، وتفقه في الدين على بعض أئمة تريم كالإمام يحيى بن سالم بن فضل (بافضل) والإمام أبي بكر بن أحمد بن أبي ماجد ، والإمام فضل بن إبراهيم بن أبي جواس : ثم سار إلى الهجرين ، وقرأ صحيح البخاري على الإمام محمد بن أحمد بن أبي النعمان الهجراني ، ولما عاد إلى تريم تولى السلطنة وسنه لانتجاوز الثلاثين ، فحكم بين الناس بالعدل ونفذ فيهم أحكام الشريعة دون تمييز بين الفقير والغنى ، ولا بين القوى والضعيف ، فكان الناس لديه سواسية . أنشأ دورا كثيرة لطلب العلم ، وبذل لتعليم الناشئين أموالا كثيرة ، وأكرم العلماء وأجرل لهم العطايا ، وأكثر من الصدقات للفقراء والمعسرين ، وفتح لهم أبواب الرزق بما قام به من المساعدات لفلاحة الأرض وزراعتها ، ومنح جميع التجار والفلاحين كل التسهيلات فكان عصره من أحسن العصور وأغزرها ، رخاء وأوفرها أمنا وأحرصها محافظة على العدالة والمساواة . سأله أحد المعجبين به بماذا تفتخر على غيرك من السلاطين ؟ فقال : أفتخر عليهم بثلاث خصال : لا يوجد في بلادى حرام ولا سارق ولا محتاج . وكتب إليه العلامة محمد بن أحمد ابن أبي الحلب رسالة ومما قاله :

أبا علم الأفضال والجود والكرم وعلامة الآداب والعلم والحكم

ويا عصمة الله الذي الناس ترتجى له دولة يرعى بها الذئب والغم

ولقد بلغت تريم في عهده من العلوم الدينية مبلغا ليس له مثيل في حضرموت ولا في اليمن ، فقد صارت كعبة يومها طلاب العلم من سائر أنحاء البلاد ، وكان يرحل

(١) كانت حدود سلطنتهم من القطر غربا إلى قبر هود عليه السلام شرقا

إليها بعض اليمنيين من زبيد ، حتى إذا نالوا حظهم من علوم اللغة والدين عادوا إلى زبيد ونشروا هناك ما تلقوه من علماء تريم . قال العلامة علي بن محمد بن أبي حاتم أبياتا في مدح تريم وعلمائها حينما غادرهم إلى اليمن :

رعى الله إخوانى الذين عهدتهم ببطن تريم كالنجوم العوالم
عليا حليف النجدة ابن محمد وأبنا أخيه الغرّ أبناء حاتم
ومن في تريم من فقيه مهذب وسيد أهل العلم يحيى بن سالم
والمراد بيحيى هنا هو الإمام يحيى بن سالم بن فضل .

استيلاء الزنجبيلي على حضرموت

في سنة ٥٧٦ للهجرة هجم عزّ الدين عثمان بن عليّ الزنجبيلي والى عدن ولحج من قبل دولة بني أيوب ، فاستولى على الشحر ، ثم سار بجيشه إلى شبام وتريم ومريمة واحتلها دون أن يلقى أمامه مقاومة شديدة من الحضرميين ، ثم عاد إلى عدن بعد أن جعل آل راشد إخوانا عنه ، يبعثون إليه الخراج في كل سنة .

قال الكبسي في (اللطائف السنية) : « وفي سنة ٥٧٦ توفي شمس الدولة توران شاه ابن أيوب في الإسكندرية ودفن بهلا ، وكان عماله عليّ اليمن يبعثون بالخراج إليه ؛ فلما مات أظهر عماله الخلاف ومنعوا الخراج ، وضرب كلّ منهم السكة باسمه ، إلا مظفر الدين فإنه ضعف عن العمل ، فنهض إليه عثمان الزنجبيلي من عدن ، وأخذ البلاد التي بيده ، وتوجه عثمان المذكور إلى حضرموت فاستولى عليها ، وقتل من أهلها كثيرا ، واستفحل أمره وقويت شوكته ، وجعل عمر بن مهدي واليا على حضرموت من قبله ، ورجع إلى عدن » .

وفي سنة ٥٧٧ أظهر آل راشد الاستقلال وخلعوا الطاعة ؛ ولما بلغ ذلك الزنجبيلي أرسل عليهم جيشا وأدخلهم في الطاعة ، وقتل كثيرا من علماء تريم الذين حرّضوا آل راشد على خلع الطاعة وإعلان الاستقلال ، وقبض على السلطان راشد وابنه شجنعة ، وأتى به إلى عدن وسجنهما . وفي سنة ٥٧٩ بلغ الزنجبيلي وصول الملك طغتكين ابن أيوب إلى تعز وزبيد ، وقبضه على العمال المستبدين ، فخاف على نفسه وهرب

من عدن ، فانتبه هذه الفرصة السلطان راشد وابنه وهربا ليلا إلى حضرموت ، ثم استقل آل راشد بالأمر ، واستمرّوا يحكمون البلاد نحو ثلاثين سنة ، وكانوا مثالا للعدل ، وكان الناس في سعادة وهناء ، ولكنّ بعض هؤلاء بطّروا واستكبروا وعتوا عن أمر الله ، وسفروا من السلطة واحتقروا رجالها ، لأنهم نالوا السعادة بعد الشقاء عفاوا بلا تعب ، وأتاهم المال من غير حساب ، فدعاهم السلطان إلى الصلاح والرشاد وبذل كلّ مجهود لهدايتهم إلى الطريق الأقوم ، وأرسل إليهم الوعاظ والعلماء ليردعوهم عن غيهم ، ويرشدوهم سواء السبيل ؛ ولكن لم ينفعهم وعظ الواعظين ، ولا نصيح الناصحين ، فبقوا في طغيانهم يعمهون ؛ فغضب السلطان لذلك ولكن دون أن يعاقبهم وينفذ فيهم أحكام الشريعة ، كما كان في أوّل أمره ، إذ أصبح عاجزا عن تنفيذ إرادته ، حتى اعتزل السلطنة وتفرّغ للعبادة ، وتبتل للمكرمات واكتساب الخيرات ؛ فقليل له في اعتزال السلطنة فقال : ما وجدنا آل حضرموت يوالوننا على الحقّ . ثم سافر ليصلح بين قبيلتين فقتل في الطريق غدرا ، وذلك في سنة ٦١٢ للهجرة ودفن في مريّة . وبقتله ضعفت سلطنة آل راشد ، وتداعت أركانها للسقوط ، وكان رحمه الله سليم النية صافي السريرة ، طاهر الذيل غيورا على الحقّ عدوّا للباطل ، صالحا تقيا ورعا ، شغوفا بنشر العلم وحبّ الخير :

خلف من بعد السلطان عبد الله بن راشد خلف تساهلوا في الحكم ، وتغافلوا عن توحيد مركزهم وتمجيد مقامهم وتعزيز سلطتهم . لم يؤدّوا الأمانة كما يجب ، لم يهتموا بشكوى المشتكين ، ولا لظلامة المظلومين ، فضعفت سلطة الولاة ، وتلاشت هيبتهم وعجزوا كل العجز عن تنفيذ الأحكام وإصدار الأوامر ، فانتشرت الفوضى في طول البلاد وعرضها ، فسيطر القوى على الضعيف ، وهضم حقوقه ، وطغى الغنى على الفقير واستعبده في شؤنه الخاصة .

يئس الشعب من ولاة الأمور ، وقطعوا كلّ أمل فيهم ، فاجتمع كثير من أولى الرأي وأرباب العلم ، وفكروا في حالة الأمة وما تقاسيه من الفوضى والدمار ، وأرادوا عزل جميع ولاة آل راشد ، وجعل السلطة في يد أفراد من عقلاء الأمة وعلمائها ، ولكنهم وجدوا أن هذا يكلفهم أمرا لا كثيرا واضطهادا شديدا من الأغنياء

والأقوياء الجبارين ، فكيف الأمر وليس بيدهم مال يتوصلون به إلى غرضهم الشريف كيف يخرجون من هذا المأزق الحرج ، ويتخلصون من آلام القوضى وويلات الخراب ؟ وأخيرا استقر رأيهم على أن يستنجلوا بنهد ، فأرسلوا إليهم الوفود وطلبوا إليهم احتلال البلاد لإصلاحها ، وإعادة الأمن وبت العدالة .

نهد

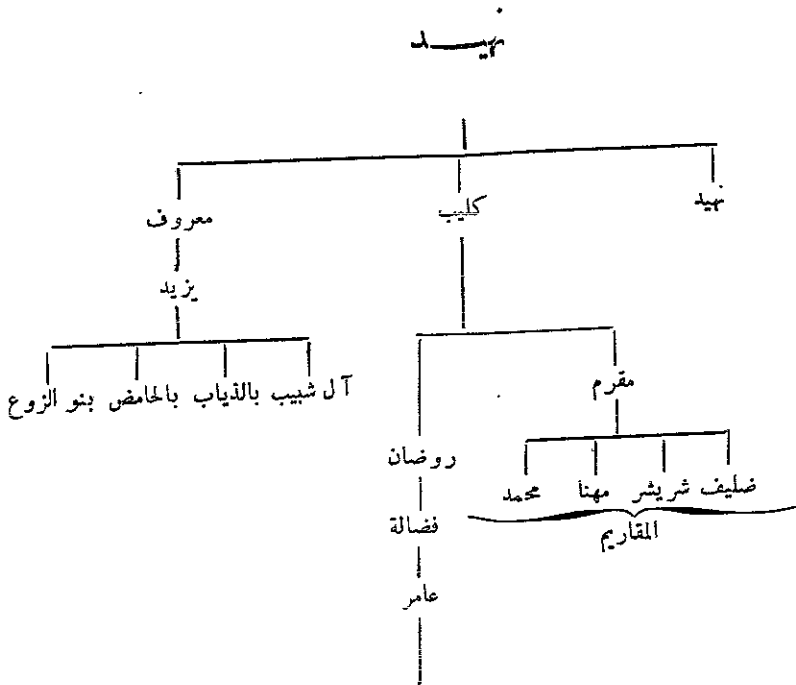
هم بنونهد بن زيد بن ربيعة بن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاة ، هاجروا من اليمن إلى حضرموت ، ولم يعرف بالضبط تاريخ هجرتهم ، ومن المحتمل أنهم جاءوا حضرموت في عهد ازدهار الدولة الحميرية ، فيها سكنوا في كسرقشاقش ، وكانوا وحدة لا تتجزأ وعروة لا تنفصم ، كانوا متحدين مترابطين متحابين لدرجة التعصب ، وكانوا أهل قوة ومنعة ، وكانت الهضبة الواقعة في جنوب القوة والتي على مقربة من مدينة العروض معقلا يرابضون فيه لصد غارات القبائل التي تأتي من أنحاء اليمن ، وقد دحروا عدة قبائل كانت أرادت الهجوم على حضرموت وكسروها هنالك كما كانت الخيقيق الواقعة بين حورة والعجلانية معقلا آخر من الناحية الشرقية . وكانت بلادهم من العجلانية إلى العروض . ومن الخماس إلى أعلى حدود سدبة حدائق غناء ، ومزارع خضراء ، لا يرى السائر فيها من جبل شراح إلى جبل حورة لكثرة النخل والكرم وأشجار السدر . وكانت حاصلات أرضهم وافرة تزيد عن حاجتهم ، ولذلك كانوا يرسلون كثيرا من البلح والزبيب والدوم وأنواع الحبوب إلى هينن والهجرين وشبام للبيع ، ولم يكن هناك حاكم عام يخضعون لأوامره وبلغثون إليه في حل مشاكلهم ومشاغباتهم ، بل كان لكل قبيلة واحد يتحاكمون إليه فيما شجر بينهم ، وما احتدم من نزاع أو خصام .

وفي سنة ٩٤٥ هـ هجم عليهم السلطان بدر بوطويرق الكثيرى وأخرجهم من الكسر إلى الشاقة ، فسار حسان بن محمد بن عامر النهدي إلى حاكم اليمن واستنجد به على السلطان بدر الكثيرى ، فأنجده بجيش ، ولكن في أثناء قدومه إلى حضرموت ، توفي حسان بن محمد ، فعاد الجيش إلى اليمن ، ثم سار أخوه ثابت بن محمد النهدي إلى والى

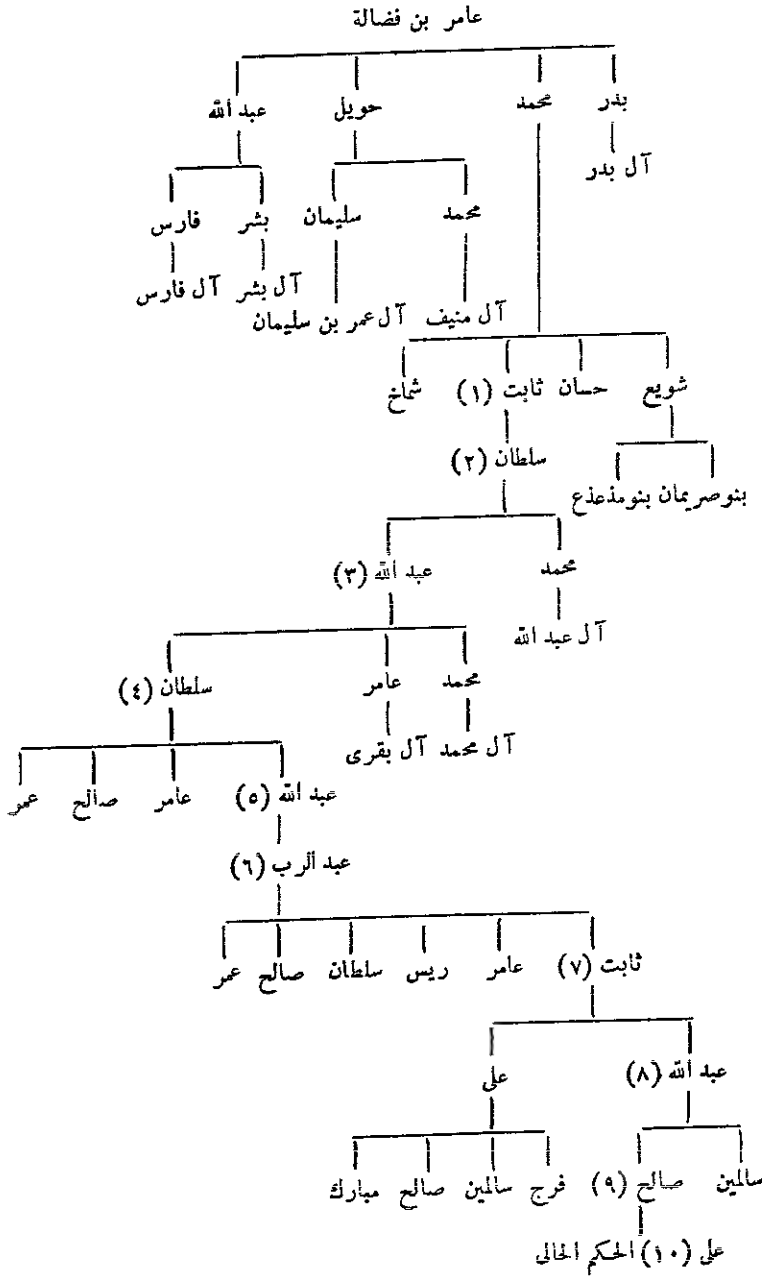
اليمن ، وطلب إليه أن يتوسط بينه وبين السلطان الكثيرى لإعادة نهـد إلى العـدان ، فأجابه إلى ذلك ، وسمح السلطان بـلـر الكثيرى لنهـد بالسكن فى العـدان والمخينيق وسـدبة وشراح .

ثم اجتمعت كلمة نهـد والـجـعـدة على إيجاد حاكم منهم يدير شئونهم العامة ويصلح أمورهم ، ويقيم بينهم العدل وينشر السلام ، فجعلوا ثابت بن محمد النهدي حاكما عليهم ، وهو أول حاكم نهدي خضعت له جميع قبائل نهـد والـجـعـدة . ولما مات قام بالأمر بعده ابنه سلطان ، ثم أخذ الحكم ينتقل من الأب إلى ابنه سنينا عديدة حتى استقر فى يد الوالى على بن صالح النهدي .

والى القارىء شجرة تبين سلالة نهـد ، ومن تفرع عنهم من البطون ، من جدّهم الأعلى (نهيد) إلى رئيسهم المعاصر لنا الآن وهو الحكم (على بن صالح النهدي) :



انظر سلالة عامر هذا فى الصفحة الآتية :



ولما جاءتهم وفود رعايا آل راشد ، رفضوا طلبهم في بادئ الأمر لأن بلادهم غنية فلم يطمعوا في فتح بلاد أخرى ، ولم يطرأ على بالهم بسط نفوذهم إلى تريم ، ولكن الوفود ألحوا عليهم ، فلم ترهتد بدا من إجابة طلبهم ، فساروا إلى شبام وحاصروها حتى استولوا عليها بدون قتال ، ثم ساروا في طريقهم إلى تريم يستولون على القرية بعد الأخرى ، حتى وصلوا إلى تريم وحاصروها أياما ، ثم قتلوا عمر بن مهدي واستولوا على المدينة ، واستمرّ حكمهم ثلاث سنوات . وفي سنة ٦٢٣ هطلت أمطار كأفواه القرب ، فبلغ السيل الزبي وغمر الماء القيعان والربا ، واجتمعت سيول دوعن وعمد ووادي العين وهينن أشبه بالطوفان ، اكنسحت أمامها ديارا كثيرة وأشجارا لا تحصى ، وغرق كثير من الناس وانتشرت الأمراض ، فاضطرّ كثير من نهد لمغادرة تريم وشبام والعودة إلى بلادهم التي دمر السيل كثيرا من ديارها ونخلها وأشجارها ، وتركوا الأمر لعلّ بن عمر بن مسعود ، فانهز بنو سعد اشتغال نهد بإصلاح بلادهم فحاصروا شبام ، فرأى عليّ بن عمر بن مسعود أنه ليس في استطاعته مقاومة بني سعد الأشداء الأقوياء ، لذلك سلم إليهم شبام سنة ٦٢٥ وأخذ عسكره وسار بهم إلى المهجرين وحاصرها ، ولم يكن فيها من الرجال المدافعين غير عدد قليل ، فأذعن له الأهالي وسلموا له البلد ، ثم سار إلى هينن فقاومه الأهالي مقاومة شديدة ، وكادوا يدحرونه لولا أنه رماهم بالمنجنيق ، فانتصر عليهم واستولى على البلد سنة ٦٢٦ ، وفي هذه السنة نفسها سار إلى الشحر وكان أميرها عبد الرحمن بن راشد بن إقبال ، وحاصروهم أياما فعرضوا له مبلغا كبيرا من المال على أن يفك الحصار ويعود إلى حيث أتى ، فقبل منهم المال ووصل إلى هينن .

وفي سنة ٦٢٨ اشترى شبام من عيسى بن فاضل وجعلها مقرا لحكمه ، ثم سار بجيشه إلى وادي عمد وقاتل قبائلها ، ثم صالحهم وعاد إلى تريم واحتلها ، واستمرّ يحكم البلاد نحو ثمان سنوات ، كان في خلالها ينهب أموال الرعايا ويكنزها دون أن يبذل شيئا منها لإصلاح العباد و عمران البلاد ، وفي سنة ٦٣٦ جاء عامر بن فضالة بن شماخ وطرّد آل إقبال من شبام وتريم وسيون واحتلّ البلاد ، وفي سنة ٦٣٧ أراد مسعود أن ينتقم من آل شماخ ، فجمع رجالا من آل إقبال وآل أبي قحطان وهجم على تريم

ونهب سوقها وعاث فيها فسادا ، فهرب أكثر السكان ولم تصل جمعة في رجب وشعبان ورمضان ؛ ولما علمت نهد بذلك ساروا إلى تريم وأخرجوا مسعودا منها ، وتساموا البلاد من ابن شماخ واستمروا يحكمونها في هدوء وسكون ، ومع أنهم لم يعمروا البلاد بشيء فقد كانوا محبوبين من الأهالي ، لأنهم كانوا أهل فتاة ، فلم يرهقوا الناس بالضرائب ولم يأخذوا من أموال الرعايا شيئا غير ما ينالونه من حاصل التمر ، وبعد ثلاث سنوات اضطروا لأن يولوا البلاد نفرا من أعيانها وسافروا إلى بلادهم ، وهكذا تركت نهد إمارة حضرموت الوسطى مرتين ، وفضلوا قعوظة على تريم الغناء الفيحاء مدينة العلم والحضارة ، ولو أنهم ثبتوا في الإمارة ووطدوا مركزهم بتولية رجال منهم لاتسع نفوذهم وقويت شوكتهم ، ولدانت لهم حضرموت جميعها ، لأن حضرموت الوسطى من الفرط غربا إلى قبرهود عليه السلام غنية بغلاتها قابلة للرقى والتمدين ، وعلى أهلها مسحة من الحضارة ، ولديهم حظ من العلم ، ولكنهم لم يحلموا بذلك ؛ ولعل أنظارهم لم تبلغ إلى حد أبعد من حصر نفوذهم في حدود بلادهم ، أو لعلمهم أرادوا أن يحصروا قواهم ويوجهوها إلى إصلاح ما دمره السيل في بلادهم . وعلى كل حال فتاريخهم السياسي يؤاخذهم على ذلك التقصير . ويحاسبهم على ما ارتكبوه من خطأ لتركهم إمارة واسعة النطاق كثيرة الخيرات .

أصبحت البلاد بعد تخلي نهد عنها في اضطراب مستمر ، وفي زلزال متواصل ، وقد يهدأ الاضطراب ويسكن الزلزال ، ولكنه هدوء متقطع وسكون تتخلله هزات ، فحينما يشعر زيد بقوة ساعده وشدة بأسه ، وحينما يجول بخاطره ويطرأ على باله التسلط على العباد والبلاد يأخذ عدته ويصيح في قومه ، فيهجم ويستولى على بلد أو أكثر من بلد ، ويعلن للناس حكمه الجديد ، وبعد مضي شهور عليه أو سنة أو أكثر من سنة ، يأتي عمرو برجاله فيطرد زيدا وأنصاره ويحكم البلاد حكما يخالف من قبله . ولقد كان لتلك الاضطرابات والمشاغبات أثر سيئ ليس في الحالة السياسية فقط ، بل وفي الحالة الأدبية والاجتماعية والاقتصادية أيضا ، فإن الحركة العلمية في تريم وشبام خمدت وتضاءل نورها ، وكاد ينطفئ ، وانحطت الأخلاق انحطاطا سيئا ، فأناس أعشى قلوبهم الطمع والجشع ، فتنازعوا وتحاربوا من أجل السلطة والحكم ، وأناس خنعوا

وخضعوا لتصرفات الحوادث ، وحبسوا لإرادتهم وكنموا عواطفهم ، فلم يسدوا نصحا ولم ينهوا عن منكر ، وآخرون انتهزوا تلك الفرصة السانحة وانتهزوا خمود الحركة العلمية وتنازع الأقوياء على السلطة ، فسعوا بكل مستطاع وبكل ما لديهم من مكر ودهاء لتوطيد مركزهم ، وتقوية سلطتهم الروحية لاستعباد الناس باسم الدين .

أما الحالة الاقتصادية فسيئة جدا ، فقد انحطت الزراعة وانقطعت القوافل وساد الكساد جميع الأسواق ؛ ومما زاد الطين بلة والحرق اتساعا قيام آل جميل ضد بني ضنة سنة ٧٦٨ ، وتنازع عبد الله بن محمد بن أحمد بن يمانى وابن أخيه راصع بن دويس على الولاية سنة ٧٧٤ ، وظهور حرب السرق الأولى في المجريين التى أثارها آل محفوظ سنة ٧٧٤ والحرب الثانية سنة ٧٧٥ .

فهذه الحوادث وهذه النكبات المتواترة ، خذلت العباد وأنهكت البلاد . ولقد كان من خذلان الأسواق وانقطاع القوافل عن الورود إليها لقلة الأمن أن ازداد القحط سنة ٧٧٦ ، فارتفعت فيه الأسعار ارتفاعا عجز الناس معه عن شراء الضروريات ، حيث بيع النمر رطل بدرهم والطعام شطر بدرهم . وفى دو عن بيع الطعام ، (مصرا) بدينار وبيع الفقوز ستين بدرهم .

الدولة الكثيرة

في دورها الأول

آل كثير أعظم قبائل همدان . وأشدّها قوة وأشرفها مقاما ، وأعزّها رجالا ، لهم نفوس كبار وآمال عظام ومطامح جسام . وهم قبائل كآل عامر ومنهم آل عبادات وآل كدّة وآل عبد العزيز وآل عمر ، ومن هؤلاء آل فاس وآل عاسر وآل مهري وآل جعفر بن طالب وآل مرعي بن طالب وآل عمر بن سعيد بن طالب ؛ وهناك أفضاخ كآل سند وآل جعفر بن بدر وآل منيداري وآل صقير وآل زيمة وآل سعيد بن مرعي ، جميع هذه البطون والأفخاذ ، وكذلك آل باجري وآل جابر والعوامر وآل سيف هم من آل كثير ؛ وفي ظفار توجد قبيلة كبرى منهم يقال بنو كثير ، وسنتكلم عنهم في الجزء الثاني .

طمح آل كثير إلى الملك وسعوا إليه من قديم ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، إذ كانت كندة باسطة ذراعيها على الأحفاد ، وكانت صاحبة الحول والطول ، ولما بدأت كندة تنكمش وتقلص حينما اعتراها الوهن ودبّ إليها الانحلال ، هبّ آل كثير وسعوا وراء الملك سعيا حثيثا حتى نالوه ، ولكن كان ملكهم ينبسط مرّة ويتقلص أخرى ، لتخاصمهم وتنازعهم فيما بينهم وفيما بين غيرهم من المنافسين ، حتى إذا كانت سنة ٧٨٦ بدأ ينتعش من جديد وتسرى فيه روح الحياة ، حيث جمع آل كثير كلمتهم ووجدوا صفوفهم وتعاونوا وتناصروا واستولوا على الشحر . اشتهر منهم فيها السلطان بدر بن محمد الكثيري ، إذ حكم بالعدل فهابته الناس ، ونشر الأمر بعد أن كان مفقودا لكثرة غارات قطاع الطرق من سكان الجبال ، ولقد أصبحت الشحر في عهد هذا الشهم المقدام المدينة الوحيدة في القطر الحضرمي التي تتمتع بالعدل والسلام والتي يجد فيها النزلاء من التجار وغيرهم راحة وهناء . ولشدة حرص السلطان بدر ابن محمد في الوثام والوفاق ، كان يسعى بين المتخاصمين بالموعظة الحسنة ، ويدعوهم إلى التسامح فيما بينهم ، فإذا أبى أحد الخصمين الصلح أصدر حكمه على الظالم في شدة

وفي غير محاباة . ولقد حاول إعادة مجد الشجر القديم وشهرتها الواسعة التي بلغت في الجاهلية إلى أقصى حدود الجزيرة العربية ورنّ صداها في آذان الفينيقيين والفلدانيين والمصريين ، حيث أرسل رسله إلى الحبشة واليمن والبحرين لنشر الدعاية للشجر ودعوة التجار إليها لمبادلة المتاجر والسلع ، ولكن من سوء حظّ الشجر ومن سوء حظّ الحضارم جميعا أن قبائل آل كثير في حضرموت الوسطى عادت إلى ما كانت عليه من التنازع والتخاصم والتناحر بالرغم من المساعي العظيمة ، والجهود الجبارة التي بذلها المصلح الكبير السلطان بدر بن محمد الكثيري لإصلاح ذات بينهم وجمع شملهم ، وقد زاد الحرق اتساعا والفتنة اشتعالا قطع صلاتهم بالشجر ، وظل السلطان بدر مع عدد قليل من رجاله يحكم الشجر في هدوء ، ولكن مع خوف متقطع ، وكأنه علم أن كندة متأهبة لاسترداد الشجر . فأرسل رسله إلى قومه يطلب إليهم رجالا لتحصين الشجر ، وللدفاع عنها ضد المعتدين ولكنهم لم يعيروها التفاتا ، ولم يمدوه بشيء لتخاذلهم وتفرقهم ؛ ولقد صح ما كان يترقبه ، فقد انتهزت كندة هذه الفرصة السانحة ، وقام سيدهم سعيد بن مبارك بن فارس بإدجاجة الكندي يستفز قومه ويدعوهم لاسترداد الشجر ، فلبوا ندائه وأتوه مهطعين وحاصروا الشجر أيا ما دافع في خلالها السلطان بدر دفاع المستमित ، ولكنه لم يستطع مواجهة قوة كندة ورجالها البواسل ، وهو في ذلك معذور كل العذر ، إذ ليس لديه من الجيش ما يوازي جيش الكندي ، ثم استولوا عليها بعد ذلك سنة ٨٣٨ .

كان لسقوط الشجر في يد كندة أعظم رجفة وأبعد صدى في نفوس آل كثير ، وقد تألموا أشد الألم ولكن لم ينفعهم هذا التحسر والتألم ، ألم ينذرهم سلطانهم بعاقبة التخاذل والتخاصم ؟ ألم يطلب إليهم مددا للدفاع عن الشجر والدود عن حوضها ؟ أما كان الواجب عليهم الذهاب إلى الشجر لمناصرة إخوانهم المحاصرين ؟ أليست الجريمة جريمتهم والخطأ صادرا منهم ؟ إن مسئولية سقوط الشجر لا تلقى على عاتق السلطان بدر بن محمد الكثيري ، فقد دافع هو وأنصاره القليلون دفاع المستमित ، حتى إذا أحاطت به الأخطار من كل جانب ورأى الهلاك سيبيده ومن معه ، انسحب من الميدان وسلم لأعدائه البلد ، إنما المسئولية تلقى على تلك القبائل الكثيرة التي لم تنصر

سيدها وتنجده برجالها . لقد ظنّ الناس أن آل كثير بعد انكسارهم في الشحر سيتحدون ويجمعون ويوحدون صفوفهم ويؤلفون بين قلوبهم لاسترداد الشحر ، ولكن لم يكن شيء من ذلك ، بالرغم من المساعي الجبارة التي بذلها بعض عقلائهم لتوحيد كلمتهم ، وبالرغم من تقديم آل باجری والعوامر أنفسهم لمساعدتهم للحرب ضد كنده ، لأن الخلاف والشقاق والمشاغبات القائمة بينهم ازدادت انتشارا واتسع نطاقها وتفاقم خطبها ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم يكن لديهم من المال ما يكفيهم لمؤنة الحملة على الشحر ، ولذلك اضطرّ كثير منهم لمغادرة أهله والنزوح إلى الخارج للإرتزاق .

كنده في دورها الثاني

بعد أن احتلت كنده الشحر تولى الحكم فيها المقدم سعيد بن مبارك بن فارس بإدجانة الكندي ، وكان هذا الأمير حليما حازما يقظا مهابا من جميع الناس ، وكان يحبّ قومه لدرجة التمصب ، يلمّ شعثهم ويرأب صدعهم ويكرم عظيمهم ويطعم فقيرهم ويواسي مريضهم ، وقد أبقى شئون الشحر كما كانت في عهد السلطان بدر ابن محمد الكثيري ، إلا الدعاية للشحر في الخارج فإنه لم يهتم بها ولم يلتفت إليها ، ولكنه بعث رسله إلى القبائل البدوية يدعوها للقدوم بقوافلها إلى الشحر ، ليتنافس بذلك أسواق هينن وشبام وتريم وسيمون ، فلم يفلح لشهرة هذه الأسواق وسهولة المواصلات إليها وسرعة بيع الواردات فيها .

ولقد حاول آل محفوظ وآل مساعد الهجوم على حضرموت الوسطى لاحتلالها ، ولاخضاع القبائل الكثيرة كي لا تقوم لهم صولة ، وكيلا يهبوا لاسترداد الشحر ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، لأن سيدهم أمير الشحر لم يوافقهم على ذلك ، ولم يرز أن يجازفوا بأرواحهم بين أفخاذ آل كثير ، لعلمه أن هؤلاء وإن كانوا متخاصمين ، فلا بد أن يكونوا يدا واحدة وقلبا واحدا ضد عدوهم المهاجم ، ومتى انتصروا فلا شك أن نشوة الانتصار تسوقهم لاسترداد الشحر .

استمرّ الأمير سعيد بن مبارك الكندي يحكم الشحر ويسوس الناس بسياسته الحازمة

ويدير شئونهم بما عرف به من العدل وحب الخير . ولما مات قام بالأمر بعده ابنه الأمير محمد بن سعيد ، فاقتنى أثر أبيه وتتبع خطواته ، ولقد ساعدته الثروة التي تركها له أبوه ، والتي كانت من نتائج إصلاحات السلطان بدر بن محمد الكثيرى ، ولقد بذل كل مجهود فى تحصين الشجر برجال من قومه ومن الحموم ، واشترى كثيرا من المراكب الشراعية لتقوية المواصلات وتنشيط العلائق وتوثيق الروابط بين الشجر وعدن وبينها وبين ظفار وبربرة ، واستمال إليه كثيرا من قبائل البادية بمبالغ من المال كان يبعثها إليهم كهدايا ، وبالأخص الحموم ، فقد وطد علاقته بهم وأمر بعض رجاله أن يتزوجوا منهم كي تقوى الروابط ، وحتى لا يستطيعوا أن ينحازوا إلى آل كثير ضده . ذاع صيته وعظم قدره واحترمه الأصدقاء والأعداء ، واعترف له بالفضل الخصوم ، ولا غرو فقد ولد من أب كان سيد كندة ، ومن أم عرفت بالذكاء وسرعة البداهة وقوة الذاكرة ، كما اشتهرت بالسياسة والبلاغة وقوة التأثير والحاذية ، وقد كانت تتولى الحكم فى غيبة ابنها ، لأنه لا يوجد فى الشجر من الرجال والنساء من يفوقها فى العقل والحزم وبعد النظر .

محاولة كندة احتلال عدن

فى سنة ٨٥٨ للهجرة اشتد النزاع والخصام بين يافع آل أحمد وآل كلد فى عدن ، وكانوا إذ ذاك أصحاب الكلمة النافذة والأمر المطاع فى حكومة عدن ، وكانت الحصون بيد آل أحمد ، فثارت الحرب بين هؤلاء وبين إخوانهم آل كلد ، هرب الحاكم المسعودى خوفا من الاغتيال ، فاضطربت شئون عدن ، واختل الأمن فيها ، وكثر النهب والسلب ؛ فجاء المؤيد بجيشه من زبيد واحتل عدن ، فخاف آل أحمد اتساع نفوذ آل كلد وذهبوا إلى بنى طاهر وشجعوهم على احتلال عدن ، فجاء هؤلاء بجيش تحت قيادة نقيب يافع من آل أحمد ، فخاف آل كلد على أنفسهم وفر كثير منهم إلى الشجر ، ولما وصلوا هناك حثوا الأمير محمد بن سعيد الكندى على احتلال عدن ، وتعهدوا له بأن يضحوا كل مرتخص وغال فى سبيل الاحتلال ، فأعد الكندى جيشا خليطا من قومه ومن يافع ومن الحموم ومن المهرة ، وسافر بهم فى تسعة مراكب ،

وما كان لهذا الشاب الكندى أن يجازف بجيش أغلبه يجهل مخاطر البحر ويرحل بهم إلى بلاد نائية عن عشيرته؛ وفيها بنو طاهر وعلى مقربة منها أمراء المسعودى بجيوشهم، ولكن نفس هذا البطل أكبر من جسمه، وآماله تنوء من حملها الجبال، ولقد حاولت أمه بنت معاشر منعه عن السفر فلم يرضخ لنصحها ولم يُقيم لكلامها وزنا، فأبحر بجيشه بعد أن ولى أمه الحكم بالنيابة، وهى أول حضرمية تولت الحكم فى الشحر، ولما علم أهل عدن بقدوم الأمير الكندى، ولم يكن إذ ذاك فى عدن أحد من سلاطين بنى طاهر غير نائبهم الشريف على بن سفين، حصنوا البلد بما فيها من يافع والجيوش والبربر، وأرسل الأمير على بن سفين إلى بنى طاهر يطلب منهم المدد؛ وفى يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الثانى جاء السلطان الظافر عامر بن طاهر إلى عدن بعسكره من ضليعة، ولما بلغ ذلك الكندى أشار له كبار جيشه فى أن يتراجعوا بمراكبهم إلى البحر ويتظاهروا بالاندحار، حتى إذا اطمأنّ الأعداء على أنفسهم أعادوا الكرة على غرة، ولكن الكندى أبى إلا الهجوم فى مساء ذلك اليوم غير مبال بكثرة جيش أعدائه ومن سوء حظّه أن هبت عاصفة شديدة حالت بينه وبين عدن، وأغرقت بعض مراكبه بما فيها من مؤن وذخائر، فاضطرّ لأن يرجع إلى البحر، فركب هو وبعض رجاله مركبا فانقلب بهم المركب لشدة العاصفة، وكاد الأمير الكندى يغرق لولا أنه آوى إلى الساحل هو ومن معه. ولما علم بهم جيش بنى طاهر خرجوا من حصونهم وأسروا الأمير الكندى ومن معه وسجنوهم. ولما بلغ ذلك إلى الشحر جمعت أمه الحاكمة بالنيابة الأعيان واشتشارتهم فى أمر ابنها، فأنكشوا وقبعوا خوفا من أن يغتالهم آل طاهر فى عدن، فسافرت هى بمفردها إلى عدن؛ واجتمعت بالسلطان الظافر عامر بن طاهر وفاوضته ليطلق سراح ابنها من السجن، فامتنع السلطان فى بادئ بدء، ولكنه فى النهاية خضع لقوة تأثيرها وبلاغتها وصراحتها، فأجابها إلى ذلك. وعادت به أمه إلى الشحر.

وتوفى عقب وصوله مسموما من بنى طاهر، فخرست البلاد رجلا مقداما وحاكما حازما ووطنيا مخلصا، وحزنت عليه الأمة حزنا شديدا، ولقد أبدت أمه من الرزانة ورباطة الجأش ما أدهش العقول وحير الألباب، فقد نادى فى الناس بوفاء ابنها والدموع تنحدر من عينيها بهدوء، وهدأت روعهم وواستهم فى فريد البلاد:

الحالة السياسية بعد وفاة محمد

بعد أن توفي الأمير محمد بن سعيد الكندي لم تجر الأمور كما كانت في عهده ، وبالرغم من الجهود التي بذلتها أمه لإعادة الطمأنينة والسلام في أرجاء البلاد ، وذلك لأن الذي تولى الحكم أخوه ، وكان هذا ضعيف الرأي قصير النظر سريع الغضب كثير الطيش . ولقد حاولت أمه أن تهديه بآرائها الصائبة وأفكارها الحكيمة ، ولكنه كان متعصبا لرأيه لدرجة الجمود ، وقد قطع ما كان يمنحه أخوه لرؤساء قبائل البادية من الهدايا الكريمة ، فانقطعت بذلك الصلات بينه وبين قبائل البادية ، كما قطع صلاته بآل محفوظ وآل مساعد وآل مرتع ، حيث لم يسع لإزالة ما حصل بينهم من خلاف وشقاق ، ولعله عاجز عن ذلك كل العجز ، أو لعله كان لا يريد أن يوزع أعماله وقوته خارج حدود الشحر ، ولكن هذا ضعف في السياسة وقصور في النظر ، ولو أن أهل الشحر عارضوا في توليته ، لواء أنهم ولوا عليهم أمه الحازمة لظلت الأحوال كما كانت من قبل ، وربما كانت تتحسن أكثر ، ولكنهم كانوا ضعاف الإرادة ، هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى كانوا يرون من العيب عليهم الخضوع لأحكام امرأة ، والانقياد لأوامرها ، على أن تلك السيدة الكندية أكبر منهم عقلا ، وأوفرهم حزما ، وأبعدهم نظرا ، وأعمقهم فهما لبواطن الأمور وظواهرها وعواقبها .

انقطعت الصلات بين الشحر وقبائل البادية ، وقام جماعة من الحموم يقطعون السابلة ويلقون في قلوب الناس الرعب ، ففقد الأمن وانكششت المواصلات التجارية ، فكسدت السوق وأخذ التجار يرحلون إلى ظفار وعدن ، وإلى شبام وتريم ، فساءت الحالة وازدادت ضنكا وتعاسة ، وأمست الشحر تكافح مصائب لم ترمثلها من قبل ، وكأن الشحرين ينسوا من الحياة ، وقطعوا كل أمل في النهوض ، فحمدوا وركدوا ، وما أشبه هؤلاء بأولئك الذين يرون النار تلتهم بيوتهم وهم واقفون أمامها يتفرجون ويلهون .

الدولة الكثيرة

في دورها الثاني

قلنا إن بعضا من آل كثير اضطروا للهجرة إلى الخارج للارتزاق، وكان في مقدمة هؤلاء المهاجرين السيد جعفر بن عبد الله بن علي بن عمر الكثيري، فقد اتخذ ظفارا مركزا لتجارته، وساعدته الظروف حيث أصبح بعد بضع سنين من أرباب المال. كان هذا المقدام ذا غيرة مشتتة وحمية متقدة نحو عشيرته، ولأخلاقه الكريمة وخصاله الحميدة وآرائه السديدة أحبه الناس وركنوا إليه واتخذوه نصيرا ومعينا لهم في أمورهم الخاصة والعامة، وكان ينوب عن التجار النازلين هناك في الدفاع عنهم والمطالبة بحقوقهم عند حاكم ظفار. لم ينس هذا السيد صدمة الشحر حتى نكب بها قومه، ولم يرض أن تبقى الشحر في يد كندة وتحت ساططها، لذلك باع جميع أملاكه في ظفار، وسافر هو وابنه عبد الله إلى حضرموت، فسعى أولا لإصلاح قومه وإزالة ما حدث بينهم من خلاف وشقاق، حتى استطاع بعقله الراجح وفكره الناضج وشخصيته البارزة أن يجمع كلمتهم ويؤلف قلوبهم ويوحد صفوفهم؛ ثم كوّن منهم جيشا وسار به إلى الشحر وهجم عليها بدون سابق إنذار، فاستولى عليها دون أن يلقى أمامه مقاومة شديدة وذلك سنة ٩٠١، وظلّ يحكم الشحر مدة من الزمن، ثم ولى ابنه عبد الله الأمر، وسار هو إلى شبام وحرص كل الحرص على بقاء الاتحاد والوئام بين عشائره، فأصبح آل كثير بفضلله متحدين مترابطين؛ ثم سار إلى بور، وهناك أدركته الوفاة في ذى الحجة سنة ٩٠٥، ففقدت البلاد رجلا عاملا ووطنيا مخلصا وسياسيا محنكا، وكان محبوبا لدى جميع الناس، ذا سيرة حسنة. وأما الأمير عبد الله بن جعفر الكثيري فقد ظلّ يحكم الشحر في هدوء حتى عاجلته المنية سنة ٩١٠. ثم قام بالأمر بعده ابنه الأمير محمد بن عبد الله الكثيري، وكان هذا سليم النية ضافي السريرة ضعيف الإرادة

قصير النظر ، حصر أعماله الضئيلة في الشجر ، وقطع كل علاقة بقومه في حضرموت الوسطى ، وبني بينه وبينهم ردما من حديد ، فساءت حالهم ودب إليهم الخلاف والشقاق والخصام ، فتلاشت هيبتهم وذهبت ريجهم ، واستبد بالحكم في تريم محمد ابن أحمد بن جردان ، وفي شبام كان السلطان بدر بن محمد الكثيري حاكما ، ولكن كان ضعيف الإرادة سليم النية لا ينفذ له أمر ولا يقام له وزن ولا يرفع له ذكر ، قبع في قصره وترك الأمر لمن دونه من الرؤساء ، يحكمون حسب أهوائهم ، ويتصرفون في حقوق الشعب كما يريدون ، ويذيقونه ألوانا من الظلم والعذاب ، ولما توفي سنة ٨١٥ ازدادت الفوضى وانتشرت المظالم وساد الخراب وكثر السلب والنهب بين شبام وتريم وسبون ، وتعدى الأقوياء على حقوق الضعفاء ، ففقد الأمن في أرجاء البلاد واختل النظام . هكذا اضطربت الأحوال واختلت النظم ، وأصبحت الفوضى ضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها ، ولقد هم آل محفوظ وآل مساعد بالهجوم على شبام وطرده آل كثير منها ، وأرادت ذلك نهد أيضا ، ولكن الظروف لم تساعدهم على ذلك ، إذ التنازع والتخاصم فيما بينهم نادر والفتنة مشتعلة . هكذا أمست الدولة الكثيرية لقمة سائغة يتحفظ لالتقامها نهد وكندة ، ويستبد في شئونها ابن جردان ، ويتعدى على حقوق الضعفاء الأقوياء الجبارون .

في مدينة شبام وفي قصر من قصورها الشاهقة شاب لم يتجاوز العشرين من عمره ، حاد الذكاء قوى الذاكرة بعيد النظر كريم السجايا حميد المزاي ذو ثروة واسعة تركها له أبوه وجده ، ولكنه ليس من أولئك الشبان الكسالى الذين يأكلون ويشربون وينامون ، بل هو طموح للمجد عزيز النفس حرّ الضمير ، ذو غيرة متقدة وحمية مشتعلة على عشيرته الأقربين ، ذلك هو بدر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن علي ابن عمر الكثيري الملقب بأبي طويرق ، والمولود سنة ٩٠٢ لم يرض هذا النبيل أن يرى ملك آبائه ممزق الشمائل مقطوع الأوصال ، لم يسمح له ضميره الشريف بالحمود والهمود على ما حل بقومه من الخذلان والخسران ؛ فهبّ يعمل بكل جهده لإنقاذ ملكه وإحياء قومه ، وجاس خلال الديار باحثا عن رجال ليضم أصواتهم إليه ويكوّن منهم قوة تكسح ما سيعترضه من العقبات والعراقيل ، ولكن لم يجد من يلي نداه

ويشدّ أزره ويكون له عوناً ونصيراً ، كأن القوم رضوا بتعاسة الحال وسوء المنقلب ، كأنهم قطعوا كل أمل في إحياء ملكهم واسترداد ما اشتراه آباؤهم بالدم . حاول بدر ابن عبد الله أن يسوس الشعب ويرشدهم إلى الصلاح والفلاح ، ولكنه لقي أمامه كثيراً من أقربائه يعاكسونه ويقاومونه وينصبون له العداء ويحفرون في سبيله الحفائر ، لذلك اضطرّ أن يغادر البلاد ليأتى بقوم يستردّ بهم الملك الضائع والحكم المفقود ، فسافر حتى إذا وصل اليمن في شهر ذى الحجة سنة ٩٢٥ طلب إلى الإمام أن يمدّه بجيش ، فأمره بالبقاء لديه ليشهد وفود القبائل التي تأتيه لتهنئه بالعيد ليختار القبيلة التي تروقه وتعجبه ، فوقع اختياره على يافع ، وانتخب منهم خمسة آلاف ، فسافر بهم إلى حضرموت ، ولما وصلوا إلى الشحر تخلف عنه جماعة من يافع وسكنوا هناك ، وسار بالبقية إلى ذوعن وهناك أبقى جماعة من بني بكر وآل يزيد وآل بطاطي ، ثم سار قاصداً شبام ، فعلمت بقدمهم قبائل نهد واحتشدت في نجران لصدّهم ، فالتقى الفريقان وسارت بينهما الحرب ، وكان النصر لبدر وقومه وتخلّف في نجران وسدبة جماعة من بني بكر ، ثم سار إلى شبام واحتلها في شهر رجب سنة ٩٢٦ وحصنها برجال من يافع (الموسطة) ؛ ثم سار إلى تريم واحتلها في محرم سنة ٩٢٧ ، وطرد منها محمد بن أحمد بن جردان ، واتخذها مركزاً لدولته وحصنها برجال من يافع (آل لبغوس) ؛ كما حصن سيوون بجيش من يافع (الظبي) ، ثم سار إلى هين واستولى عليها ، وجعل عبد الله ابن عليّ بن عمر المرهون حاكماً عليها من قبله ، ثم أرسل جماعة من يافع إلى السلطان محمد بن عبد الله بن جعفر الكثيري ليضمهم إلى الجيش ، لتعزيز الشحر ولتأمينها من غارات الأعداء وقطاع السيل .

هكذا أحيا السلطان بدر بوطويق الكثيري ملكه المندثر وسلطانه المضمحل ، وبعث فيه القوّة وروح النشاط ، بعد الحمود والجمود ، وأعاد لقومه مجدهم الضائع وشرفهم المحتضر ، رفع اسمهم وأحيا ذكرهم وبوأهم مقعداً علياً . كان شديداً في حكمه قاسياً في أمره ، ولكن كانت هذه الشدة وهذه القسوة في صالح الأمة ولمنفعتها ، كان متواضعاً يجالس الكبير ويحادث الصغير ويعطف على الفقير ، قرب إليه العقلاء والفضلاء واتخذهم بطانة له ، وكان بين هؤلاء أفراداً ليسوا من آل كثير ، اختارهم

لعمولهم الراجحة وأفكارهم الناضجة ، غاضا النظر عن جنسياتهم وأرومتهم ، الأمر الذى أغضب جماعة من عشيرته وجعلهم يتقمون عليه ويرمون به بالبله وحسن النية . كان يجزل العطايا للعلماء ويغدق على الشعراء والأدباء الهبات ، فدحه هؤلاء وأثنوا عليه وشكروا له فضله الوافر ومعروفه الغزير .

ظهور حزب سياسى منافس له :

فى سنة ٩٣٣ ظهر حزب سياسى ضد السلطان بدر تحت قيادة الأميرين محمد ابن عبد الله بن عمر الكثيرى ومحمد بن بدر بن محمد الكثيرى ، وكان الدافع الأكبر لقيام هذين الأميرين هو انفراد السلطان بدر بتلك الشهرة الواسعة النطاق التى أحرزها من إحيائه الدولة الكثيرية وتولييه قيادتها . ثم إنه لم يشرك الأمير محمد بن بدر فى ولاية شبام ، مع أن أباه كان واليا فيها ، وليس امتناع السلطان بدر عن ذلك لشىء سوى ضعف شخصية الأمير محمد وعدم مقدرته للقيام بأمر شبام ، ولكن الأمير محمد عدّ حرمانه من السلطة إسقاطا لقدره . ولقد قوى هذا الحزب السياسى واتسع نفوذه حيث تدخل فى الأحكام وعاكس أوامر كان يصدرها السلطان بدر ، ولكن السلطان بدر أدرك أغراض ذلك الحزب وما يحوكه ضده من الأعمال وخشى على مركزه من السقوط ، لذلك ألقى القبض على الأميرين محمد بن عبد الله ومحمد بن بدر وزجهما فى السجن ، وأرسل إنذاراته الجبارة لبقية أعضاء الحزب ، وهددهم بالويل متى عادوا للمعارضة والمعاكسة والتحريض ضد السلطة الحكومية ، وظل الأميران محبوسين فى حصن مريمة حبسا احتياطيا شريفا ، حتى توفى الأمير محمد بن بدر الكثيرى فى رمضان سنة ٩٤٩ بعد أن قضى ستة عشر سنة ، وفى سنة ٩٥١ سعى بعض عقلاء آل كثير لدى السلطان بدر لإطلاق سراح الأمير محمد بن عبد الله من السجن ، فأجابهم إلى ذلك ، وسافر الأمير محمد إلى الحجاز .

إرسال جيش لفلح حصار الترك :

فى سنة ٩٤٥ أرسل السلطان سليمان العثمانى جيشا إلى اليمن تحت قيادة وزيره سنان

باشا الأرناؤوطى ، ولما وصل هذا إلى عدن طلب إلى أميرها عامر بن داود أن يسمح لجيشه بالنزول فى عدن لشراء حاجياتهم ، وكان القائد قد أوعز لهم بأن يغدروا بأهل عدن ، ولما كانوا هناك ألقوا القبض على الوالى عامر بن داود وعلى من حوله من الأعوان وأتوا بهم إلى القائد سليمان باشا فشنقهم هذا وصلبهم ثلاثة أيام واحتل عدن وبقتل عامر بن داود انقضت الدولة الطاهرية التى هى من الدول الشافعية التى حكمت اليمن ، وقامت بمحاربة البرتغال والترك ، وأخذت فتن أئمة الزيود . ثم أرسل سنان باشا جيشه للهجوم على الشحر واحتلالها ، ولكن السلطان بدر بوطويرق الكثيرى استعد للطوارئ حيث حصن الشحر برجال من قومه ، وأرسل سفنه الحربية تطوف بين الشحر والمكلا ، فعاد الجيش التركى خائبا مخذولا ، ثم توجه الجيش التركى إلى اليمن لاحتلالها ولكن اليمنيين ثاروا جميعا ضد الترك وحاصروهم فى زبيد ، وثار أهل عدن ضد الحكم التركى ، وولوا عليهم على بن سليمان البدوى صاحب خنفر ، وذلك سنة ٩٥٣ ولشدة كراهية العدنيين للترك لقتلهم الوالى عامر بن داود فقد تعاهدوا مع البرتغاليين على أن يكونوا يدا واحدة ضد الترك .

ولما بلغ ذلك إلى السلطان بدر الكثيرى خاف أن يقوى نفوذ البرتغاليين فى عدن ويستولى على حضرموت وقد منع الترك عنها ، كذلك أرسل جيشه إلى ذبيد لفك حصار الترك وألزم أهل اليمن بطاعتهم ليتمكنوا من سحق البرتغاليين وفعلا ساروا بالجيش التركى والحضرى إلى عدن واحتلوها سنة ٩٥٤ بعد أن جاءهم المدد من داود باشا من مصر ، وقتلوا على بن سليمان البدوى والى عدن وبعضا من رجاله ، وقضوا على سلطة البرتغاليين وبددوا جمعهم ، وهكذا عادت عدن للحكم التركى ، كما أصبحت اليمن خاضعة لهم بفضل السلطان بدر بوطويرق الكثيرى .

اعترافه بالطاعة للترك وعزله من الحكم :

فى سنة ٩٧٠ اعترف السلطان بدر بوطويرق الكثيرى للترك بالطاعة والولاء والسبب مجهول ، ولعله لما رأى اليمن وعدن وظفار خضعت للترك خاف أن يحدث

(١) قال الكيىن بليغر فى كتابه « A History of Arabia » : إن عدد البرتغاليين الذين هجموا على عدن سنة ٩٢٠ هو ٢٥٠٠ منهم ثمانمائة جندى من الهنود وفازوا فى البداية ثم هزموا بعد أربعة أيام .

من جيرانه ما لا تحمد عقباه من هجوم وعدوان وليس لديه من العدد والعُدَد مثل ما عند الترك ، ثم إنه أراد أن يوطد العلائق ويشدّ صلات الولاء بينه وبينهم ، لذلك اعترف لهم بالطاعة ، وأرسل إلى القسطنطينية هدايا فاخرة منها بعض أسرى من الإفرنج في واقعة الشحر مع البرتغال^١

وقد أشار إلى ذلك شاعر حضرته في القرن الحادى عشر الشيخ عبد الصمد باكثير من قصيدة يمدح بها السلطان عمر بن بدر :

قمتم بحقّ ابن عثمان وطاعته محبة هي منكم عن أب فأب
كمثل ما أسرّ الإفرنج من قدم أبوك بدر بن عبد الله ذو الحسب
ساروا بهم في وثاق الأسر قد صلدوا بعضا وبعضهم قد غلّ باللب
هناك كان إلى اصطمبول مقدمهم إلى سليمان بالله من عجب
وبعدها في زبيد حيث طال على عساكر الروم^٢ ضيق الحصر والتعب
أرسلتم المال والأمداد نحوهم وكل غال من المشحوم والذهب

ولكن بعضا من كبراء عشيرته لم يوافقوه على ذلك ، كما عارضوه في إرسال النجدة "لملك" حصار الترك في زبيد ، ونقموا عليه ورموه بالجن ، وفي مقدمة هؤلاء الناقمين ابنه الأمير عبد الله بن بدر الكثيرى ، ومما زاد الطين بلة سكوته لإزاء معارضة أهل هين للحكم الكثيرى ، وقطع علائقهم بسيون وإعلانهم الاستقلال التام ، لذلك جمع الأمير عبد الله بن بدر بعضا من أعيان آل كثير ، وكوّن منهم حزبا يعاكس سياسة أبيه ويعارضه في أكثر أوامره ، وفي شهر صفر سنة ٩٧٦ دخل على أبيه وهو في قصره بسيون وخلعه ، وتولى الحكم هو وأخوه جعفر بن بدر ، ولقد أحدث ذلك العزل دهشة عظيمة في البلاد ، فن الناس من عاب الأمير عبد الله على خلعه أباه من الحكم وهو منقذ الدولة الكثيرية من الضياع ومحبيها بعد موتها ، ومنهم من أعجب بجرأته وأكبر فيه همته وغيرته ، والحقّ أن عزل الأمير عبد الله أباه من الحكم يعد جرأة ليس لها مثيل في التاريخ الحضرمى ، وهو معذور في ذلك بعض العذر ، إذ أن

(١) هم جماعة من القرصان البرتغال كانوا يطوفون في البحر العربى ، فهاجموا على الشحر واحتلوا ، ولكن السلطان بدر سرعان ما قضى عليهم وأسر منهم كثيرا .

(٢) يعنى بالروم هنا الترك ، لأن تسمية الترك بهذه الكلمة كانت شائعة في ذلك الزمان .

أباه لم يهتم بتوسيع نطاق الملك كما كان في أول أمره ، بل ولم يعمل لاسترداد هينن التي خرجت عن حكمه ، أما الاعتراف بالطاعة للترك فهو وإن كان يظهر للبعض أن فيه عيبا ، فلم يأت بشرّ للبلاد ولم ينقص شيئا من استقلال الدولة الكثيرة ، إذ لم يكن هناك من الترك من قام بأمر من أمورها أو ناب عنها في شأن من شئونها الخاصة أو العامة ، فجميع ولاية الأمور كانوا حضرميين ومن صميم آل كثير ، فالاعتراف بالطاعة إنما كان اعترافا اسميا لا غير .

لم يعارض السلطان بدر بوطويق في عزله ، ولم يعمل لإعادة مركزه واعتلاء عرش الملك ، ولو نهض لذلك لوجد أنصارا كثيرين من قومه ومن القبائل الموالية لحكومته ومن الدولة العثمانية ومن أمراء اليمن ، لما له من النفوذ العظيم والشهرة الواسعة النطاق ، ولكنه رضى بالعزل وأخلد إلى السكون والصمت ، ولعله رأى أنه إذا قام بالمطالبة يجلب الشقاق والحصام والخراب للبلاد والعباد ، إذ الحرب لا بد أن تثور بين الطرفين ، ولا بد أن تسيل الدماء وتذهب أرواح كثير من رجال الدولة وغيرهم ، فهو أخلد إلى السكون حبا في جمع الكلمة وتأليف القلوب وتوحيد الصفوف وتوطيد السلام ، وفي سنة ٩٧٧ توفي عظمتة في سيون وعمره ٧٥ سنة ، ولقد تولى الحكم نحو خمسين عاما بنى له في خلالها مجدا لا يمحي وذكرنا حسنا لايزول ، ولقد ساد لوفاته الحزن والأسى أرجاء البلاد ، وبكاه الشعراء والعلماء والفضلاء ، ونعتته الدولة العثمانية وولاية اليمن . أما السلطان عبد الله بن بدر الكثيرى فقد اتخذ مدينة سيون مركزا لحكومته ، وأرسل جيشه إلى هينن وأخضعها لحكمه ، ثم استولى على المهجرين وحورة ووادي عمد ودوعن ، وتوفي سنة ٩٨٤ وقد ساس البلاد بحزم وكياسة ، وقام بالأمر بعده ابنه السلطان جعفر بن عبد الله الكثيرى ، ولم يكن كأبيه في السياسة والحزم والعزم ، حاول احتلال بلاد نهد فحاصروهم من نواحي هينن والعجلانية والمهجرين وحورة وعندل ومنع وارداتهم من الدخول في أسواق هينن والمهجرين ، فحققت عليه نهد حتى قتله الظلفان سنة ٩٩٠ ، وقام بالأمر بعده السلطان عمر بن بدر العادل ، ففك حصار نهد وسمح لهم بالسير في أي بلد يريدونه ، وبذل مجهوده لنشر الأمن في أنحاء البلاد ، وشجع الناس على نشر العلم ، وأجزل العطايا للعلماء والفضلاء ، فارتاحت الناس

في عهده ، واطمأنت النفوس ، وكثر الحصب ، وزكا الزرع وزاد الرخاء ، ورخصت الأسعار . وفي سنة ١٠٢١ توفى في الشحر ، فحزنت عليه الأمة أشدّ الحزن . كان حسن الشمائل محمود الأوصاف وافر العقل كثير العدل ، وكان نصيره وأمينه ومعينه الحسيم في الآراء والأفكار كاتبه الشاعر الكبير السيد عبد الصمد بن عبد الله با كثير ، فقد اختصه بغرر مدائح وعيون قصائده ، وكان منه بمنزلة البحرى من المتوكل ، والمتنبى من سيف الدولة فن شعره فيه قوله من قصيدة يمدحه :

حبيبي أفلنى في هواك من الجفا	فقد شفنى منك التباعد والهجر
وطال سهادى واشتياقى ولوعتى	ومن مدمعى فوق الحدود جرى نهر
عشقتك حتى رقت فيك تغزلى	ولولاك لم يملأ دفاترى الشعر
صفاتك لا يحوى نظائى أقلها	كوجود ابن بدر لا يرام له حصر
إذا نابى خطب الزمان فإننى	إلى عمر الخيرات بنى ينتهى السفر
مواهبه موصولة بمواهب	إذا ضنت الأنواء واحتبس القطر
إلى جوده تحدى الركائب فى الفلا	يقلقلها الإرقال فى البيد والزجر
إليه انبرت حتى طوت كل فدفة	تساوى لديها حندس الليل والفجر
إلى ما جدد لا يمنع الوفد رفده	ولا كفه جعد ولا سيبه نزر
وأنفس ذخره عنده بذل ماله	إذا غيره كنز الكنوز له ذخـر

ولما مات رثاه بعدة قصائد منها قوله :

اليوم أطلقت الدموع وأضرمت	بين الضلوع لواعج البرحاء
موت ابن بدر هـ أركان القوى	منى وزعزع جانب الحوباء
عمر بن بدر خير من يدعى إذا	خطب أنى بلممة دهياء
اليوم ندعوه فلا يصغى إلى	داع دعا ، يا ضيعة الشكواء
أضحى (المصبح) بعده متكرا	والبرج أمسى موحش الأرجاء
قمر هوى من أفته فأوى إلى	بطن الثرى فهو القريب النائى
نبكى عليه وفى الضمائر لوعة	لا ينطقى وهاجها بالماء
ما أنصفته مدامع نبكى بها	مالم تكن ممزوجة بدماء

ورثاه بقصيدة أخرى مطلعها :

هوى من سماء المجد كوكبها القطب فأظلم في أقطارنا الشرق والغرب
قام بالأمر بعده ابنه السلطان عبد الله بن عمر الكثيرى ، واقتنى أثر أبيه ، وقد
نافسه في الحكم أخوه الأمير بدر بن عمر ، ونازعه في السلطة ، وكادت الحرب تثور
بينهما لولا وجود أفراد من عقلاء آل كثير ، بذلوا جهودهم العظيمة في التوفيق
بينهما وإصلاح ما شجر من خلاف ؛ ثم سافر السلطان عبد الله بن عمر إلى مكة لأداء
الفریضة ، وتوفى هناك سنة ١٠٤٥ . وكان رحمه الله حسن الخلق والخلق ، مهذب
النظر ، ولى الملك فأحسن القيام به . ثم قام بالأمر بعده ابنه السلطان بدر بن عبد الله
الكثيرى كان على جانب عظيم من المكر وبعد النظر ، ولكنه كان ظالما جائرا قاسيا
مستبدا متعصبا لآرائه ، إذا أراد شيئا أو أصدر أمرا نفذ في الحال ، حتى ولو كان
يخالف الشرع وينافي العقل والعرف ، كان جشعا هلعا في المال يجمعه لنفسه بوسائل
غير شرعية ولا قانونية ، والويل لمن يمتنع عن دفع ما يريد . علم أن عمه الأمير بدر
ابن عمر الكثيرى نازع أباه في الحكم وحسده وحقد عليه ، فلا بد أن يعيد ذلك
الدور معه ، لذلك احتاط لنفسه فقد استمال قلوب بعض الناس إليه بالعطايا الجزيلة
والهبات الوافرة ، فالتفّ حوله المنافقون من رجال الدولة ، وصاروا طوع أمره
ورهن إشارته ؛ ولما رأى الأمير بدر بن عمر ميل الناس إلى السلطان بدر بن عبد الله
سعى بكل جهده في تنفيرهم منه وعدم الخضوع لحكمه ، وبذل كل مستطاع لتكوين
حزب يناوئه ويعاكسه ، ولكنه لم يفلح في مساعيه حيث لم ينضم إلى حزبه سوى أفراد
من أقربائه الأحرار المخلصين ، ولما رأى خيبة أمله أرسل إلى إمام اليمن يطلب إليه
إرسال جيش لاحتلال حضرموت ؛ ولما علم السلطان بدر بذلك غضب على عمه غضبا
شديدا وألقى القبض عليه وسجنه ، وحين بلغ الإمام المتوكل على الله إسماعيل ذلك أرسل
إلى السلطان بدر بن عبد الله يأمره بإطلاق سراح عمه من السجن ، ويهدده بالويل
والثبور إذا لم يطلقه ، ولكن السلطان بدر لم يهتمّ بهديد الإمام ولم يقم لكلامه وزنا ؛
وفي شهر صفر سنة ١٠٦٥ جهز الإمام المتوكل عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة أجد
ابن الحسن بن الإمام إلى بلاد بنى أرض ليمهد طريقه إلى حضرموت ، فنار آل رصاص

لمحاربته ، ولكنهم هزموا وقتل قائدهم حسين الرصاص ، وقطع رأسه وأرسل إلى الإمام ، ثم زحف الجيش إلى يافع والتحمت الحرب بين الطرفين ، فانتصر عليهم الزيود بعد أن جاءهم المدد من صنعاء ؛ ولما بلغ السلطان بدر بن عبد الله الكثيري انتصار جيش الإمام على يافع أطلق سراح عمه وأخرجه من السجن ، وأعلن الطاعة للإمام كيلا يأتي الزيود ويحتلوا حضرموت ، فأرسل الإمام صالح بن حسين الجوفى إلى حضرموت فوجد الأمر على حقيقة ، ثم جعل الإمام الأمير بدر بن عمر الكثيري واليا على ظفار .

لم يكتف السلطان بدر بن عبد الله بولاية حضرموت ، وأراد الانتقام من عمه بدر بن عمر الكثيري والى ظفار من قبل الإمام ، ففي سنة ١٠٦٨ جهز جيشا وسار به إلى ظفار واحتلها ، وهرب الأمير بدر بن عمر إلى الإمام واستنجد به ، فأمره الإمام بالبقاء في ضوران ريثما تهدأ الأحوال ، ثم أراد الإمام أن يزيل ما بين الأميرين من البغضاء والشحناء ويصلحهما بالوسائل السلمية ، ولكن بعضا من الشعراء ذكروا له قبيح فعل السلطان بدر بن عبد الله وحرصوه على القيام ضده والأخذ بالثأر للأمير بدر بن عمر ، ولعل هؤلاء الشعراء إنما حرصوا الإمام على محاربة سلطان حضرموت بإيعاز من الأمير بدر بن عمر الكثيري لينتقم من ابن أخيه ، ثم إن الأمير بدر بن عمر وجد تشجيعا من الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن العمودي ، وكان واليا على مقاطعة من مقاطعات وادى دوعن ، فقد تعهد له هذا بأن يضم إلى صفه قبائل دوعن ضد السلطان بدر بن عبد الله الكثيري ، لذلك ألح الأمير على الإمام في التجهيز على حضرموت وتكفل له بالطاعة والخضوع لحكمه ، فلم ير الإمام بدا من التجهيز .

خروج الزيود إلى حضرموت

(سيل الليل)

في يوم ١٥ من شوال سنة ١٠٦٩ جهز الإمام المتوكل على الله إسماعيل جيشا تحت قيادة أحمد بن الحسن الصفي للاستيلاء على حضرموت والانتقام من السلطان بدر بن عبد الله الكثيري ، فسار الجيش في طريق خولان ومأرب وبيجان وبلاد العواتق ، ولما وصلوا وادى حجر لاقوا كثيرا من المصاعب والمتاعب لوعورة الطريق وانقطاع

المدد ، وكادوا يضلون الطريق ويموتون جوعاً ، لولا أنهم أكلوا لحوم الحمير ؛ ولما وصلوا عقبة بامسدوس وجدوا جماعة من جيش السلطان بدر بن عبد الله مرابطين. هناك ، فرحف الصنى بجيشه وهزمه ، ثم انحدر إلى المهجرين بعد أن ضم إليه بعض قبائل نوح من أهالي حجر ، وثارت الحرب بينهم وبين آل محفوظ ، وجاء نهد لينضموا في صف آل محفوظ ، ولكنهم وجدوا الصنى قد احتل البلد وأباحها لعسكره يقتلون ويعذبون وينهبون ويسلبون ، ثم سار إلى هين فخرج السلطان بدر بن عبد الله بقومه للملاقاة وهم ينشدون قول الشاعر :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جرّ الذبول

فتارت الحرب بين الفريقين ودامت أياماً كاد الحصارم ينتصرون فيها على العدو لولا أنه كان لديه من السلاح ما ليس لديهم ، ولولا أنه كان يعرف من فنون الحرب ما لا يعرفه الحضرميون ، لذلك انتصر عليهم بعد أن سالت الدماء وذهبت أرواح المئات من الطرفين ، ثم سار إلى شبام واستولى عليها قهراً بالسيف ، وكان الزيود في طريقهم من المهجرين إلى هين ومن هين إلى شبام يقتلون كل من يلاقونه أمامهم من الرجال والنساء والولدان ، لذلك سماهم الحضرميون سيل الليل . ولما رأى السلطان بدر بن عبد الله وحشية عدوه وجلافته وفتكه وتنكيله بالأهالي ، ورأى انتصاراته ترى ، أعلن الطاعة للإمام حقناً للدماء وحفظاً لأرواح الضعفاء من الشيوخ والعجزة والنساء والولدان . ولكن الصنى ألقى القبض عليه وأرسله إلى الإمام المتوكل ، فسجنه هذا أياماً ثم سمح له بالعودة إلى حضرموت^١ أما أحمد بن الحسن الصنى فقد عاد من حضرموت إلى اليمن ولديه من الغنائم والمكاسب ما ليس له حصر . قال الكبيسي :

« وقد عاد مولانا أحمد من حضرموت في أبهة عظيمة ومملكة جسيمة ، وقد فاز بخير الدنيا والآخرة (كذا) » . أراد الإمام أن يولي ابن أخيه الحسين بن الحسن على حضرموت فامتنع ، فأرسل أحد أقاربه إليها ، ولما جاءها لم يقابلها الحصارم باحترام

(١) قال الكبيسي في كتابه « اللطائف السنية » ثم تقدم إلى بلاد المهجرين ولم يبق إلى محل السلطان عمر (كذا) غير مسافة يومين (كذا) فتلقاه الحصارم ركباناً ورجالة وقاتلوا في صف سلطانهم لا محالة فأطلقت عليهم الرصاص المذابة ووجه إليهم الردى أسبابه فقتلوا في الأودية والشعوب وجروا على الأذقان والجنوب وانهمز . لسلطان من هين إلى شبام وقد طرأ عليه بساط الأحكام ودخل الصنى على منازل ذلك البدر ولما سقط في يد السلطان عاد إلى الطاعة بعد العصيان وصلحت الأحوال ورجع الصنى في أنعم بال وأطيب حال وأرسل الصنى بالسلطان بدر إلى حضرة الإمام فاستبقاه الإمام أياماً ثم سمح له إلى دياره وتوفي بجهته بعد عوده إليها .

ولم يخضعوا له ولم يقيموا له وزنا ولا ثمنا ، فعاد إلى اليمن غير مأسوف عليه ولا محمود ، فاضطرّ الإمام بعد ذلك أن يجعل السلطان بدر بن عمر الكثيرى واليا من قبله على حضرموت ، فكان ذلك ، وفي سنة ١٠٧١ شعر جماعة من عقلاء آل كثير بسوء عاقبة التنافر والتشاحن والتنازع القائم بين السلطان بدر بن عمر وابن أخيه السلطان بدر بن عبد الله ، ووجدوا أن تنازعهما على السلطة مصدر الرزايا ورسول الخراب ، رأوا أن الخلاف القائم بينهما هو السبب الوحيد لاستيلاء الإمام على حضرموت ، ولقتل كثير من الأبرياء ، ولذهاب أموال لا تحصى ، لذلك سعوا بكل مقدورهم لإزالة الشحنة والبغضاء بين الأميرين وإيجاد الوفاق والوثام بينهما ، ولقد نجحوا في مساعدتهم الشريفة حيث تسامح الأميران وتناسيا ما حدث فيما مضى من شقاق وقتال ، وارتبط كل منهما بالآخر ارتباطا متينا وساد عليهما الحبّ والولاء والوثام ، ففرح الشعب لذلك فرحا عظيما ، وجاءت رؤساء القبائل تهنيء الأميرين بالصلح وتشكرهما بلخوحيهما للسلم والإخاء والوثام .

ظل السلطان بدر بن عمر الكثيرى يحكم حضرموت من قبل الإمام ، وكانت العلاقات بينه وبين اليمن متينة والصلات قوية . ولما توفي قام بالأمر بعده ابنه السلطان عمر بن بدر ، ثم عيسى بن بدر ، وفي سنة ١٠٧٩ قام أهل ظفار مع جماعة من الحضارم بالتحريض ضدّ الإمام لجور عامله ابن الشيخ زيد خليل ، وحاصروا هذا الوالى فى قصره ومنعوا عنه القوت ، واعتدوا على سبعة وعشرين من رجاله بالضرب وكادوا يقضون عليهم ولما بلغ ذلك إلى الإمام أرسل مولاة عثمان بن زيد ، ولكنه رجع من ظفار خائبا ، فقد كاد يقتله الثائرون . استمرت هذه الاضطرابات والقلاقل شهورا ، وأخيرا طرد الثائرون الوالى ابن الشيخ زيد خليل ، وقطعوا كل علاقة باليمن وأظهروا الطاعة للسلطان عيسى بن بدر الكثيرى ، وهكذا خلعت ظفار طاعة اليمن قبل أن تخلعها حضرموت ، وفضلت حكم الكثيرى على حكم الإمام ، ولقد كان من المنتظر أن يرسل الإمام جيشا لاسترداد ظفار وإخضاع أهلها لحكمه ، ولكنه لم يفعل لاشتغاله بإخماد الفتن الداخلية التى اشتعل لهيبها فى أرجاء اليمن . ولما توفي السلطان عيسى بن بدر الكثيرى قام بالأمر بعده السلطان حسن بن عبد الله بن عمر الكثيرى .

الدولة الكثيرة

في دورها الثالث

في سنة ١٠٩٠ استفحل تنازع أمراء اليمن على السلطة واستبد كل منهم في مقاطعته فكان محمد بن مهدي مستقلا بشئون الحجرية وأعمالها ، والحسن بن الحسين برداع ، وعلي بن أحمد بمدينة صعدة وأعمالها ، والحسين بن محمد بن أحمد أبو طالب مستقلا ببلاد حاشد وبكيل . وحسين بن المتوكل في صنعاء ؛ قطع كل من هؤلاء بالآخر ، واشتد النزاع والحصام ، وكثرت الفتن وثار القلاقل ، وتعدّد مدعو الإمامة والزعماء ، وظهر بينهم أفراد لهم معتقدات شاذة ، فتناقم الخطب وغم الفساد والظلم . قال الكسبي في كتابه (اللطائف السنية) : « وكان الإمام يتوجع من سيرة بعضهم في الرعية على غير ما يبيحه الشرع الشريف » .

وفي سنة ١٠٩٣ ثار على الإمام المهدي سلاطين يافع وآل رصاص والحوالق ، وحصلت معارك دموية بينهم وبين جنود الإمام في خرفة وقعطبة والبيضاء ولحج وجبن وأبين والزاھر والخربة والعسال وغيرها من بلاد اليمن ، وكان النصر حليف يافع وحلفائهم . قال الأمير أحمد بن فضل العبدلي في كتابه (هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن) عند ذكر استيلاء الإمام على حضرموت : « . . . وهذه أول مرة امتدت فيها يد أئمة صنعاء إلى هذه الجهات ، ثم ضعف أمر أئمة اليمن ، وكثرت الفتن فيهم وتعدّد مدعو الإمامة . وكان أمراء البلدان المذكورة وسلاطينها وقبائلها لم يزالوا يتمسكون بالاستقلال ويناجزون الأجناد الأمامية ، ووقفت سلطنة يافع وقفها المشهورة في وجه الدولة القاسمية التي أنهكتها الحروب المستمرة حتى كتب النصر ليافع » . هكذا تزايد اختلال دولة اليمن وعمت في أرجائها الاضطرابات والقلاقل .

وفي أواخر سنة ١٠٩٣ انتهز السلطان حسن بن عبد الله بن عمر الكثيري ضعف الدولة الإمامية واختلال أمورها واضطراب شئونها فأظهر الاستقلال التام ، وخلع طاعة الإمام ، وقطع جميع علاقته باليمن وقام بالأمر بنفسه ؛ وكان سياسيا حازما حسن التدبير محبوبا لدى الناس ، حسن السيرة عادلا ، جمع شمل قومه ووحّد كلمتهم وقربهم

إليه ، حالف نهذا وآل محفوظ وآل مساعد والعوامر وآل تميم ، وقوى بينه وبينهم روابط الودّ وصلات الولاء ، وتعاهد معهم على أن يكونوا جميعا يدا واحدة ضد كل من يريد احتلال حضرموت ، فتكوّنت بذلك قوّة عظيمة لوجهت إلى اليمن لاستولى الحضارم عليها ، وكانت انضمت إلى الحكم الكثيرى .

توفى السلطان حسن بن عبد الله الكثيرى وقد ساس الناس بما عرف من الحزم وحسن التدبير والمحافظة على العدالة والأمن ؛ وقام بالأمر بعده السلطان على بن بدر الكثيرى ، ولم يكن كسابقه فى السياسة وحسن السيرة ، لم يعمل لتنشيط العلائق والروابط بينه وبين القبائل المجاورة له ، ولم يهتمّ بالمحافظة على العدالة ومراقبة الأمن ، وتوفى سنة ١١٠٧ ثمّ بعده السلطان عيسى بن بدر ، وكان هذا ضعيف الإرادة سليم النية قصير النظر ترك شئون الدولة لمن دونه من الرؤساء والولاة ، وقبع هو فى قصره واعتزل الناس وما يعملون ، وكان يافع أصحاب النفوذ المطلق والكلمة النافذة ، فى شبام الموسطة ، وفى سيون الظبي ، وفى تريم آل لبعوس ، وفى الشحر آل بريك ، كل هؤلاء كانوا يصدرون الأوامر وينفذون باسم السلطان عيسى بن بدر الكثيرى ، ولقد اتجهت أنظار الرعايا إلى الولاة ورؤساء الدولة ، وأمسى السلطان عيسى نسيا منسيا لا يعرفه غير أهله ، ولا يجتمع به سوى أقربائه ، وهو بذلك مسرور كل السرور بما رزق به من الشبهة للطعام واللذة فى النوم . أصبح يافع (الرتب) فى شبام وسيون وتريم والشحر يصدرون الأوامر وينفذون الأحكام بأسمائهم وتحت مسئوليتهم ، ولقد هبّ جماعة من آل كثير واستحثوا قومهم على القيام ضد يافع لاسترداد سلطتهم المفقودة ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، لأنّ مقاليد الأمور بيد يافع ، والحصون وما فيها من الذخائر تحت أيديهم ، لذلك هذأ آل كثير والتزموا السكوت والصمت غير أن أحد أبطالهم وهو عمر بن جعفر الكثيرى لم يهنأ له عيش ولم يطمئن له بال ولم يهدأ له هاجس ، استنكف الخضوع والخنوع ، لم يود أن يكون محكوما بعد أن كان حاكما ومرعوسا بعد أن كان رئيسا ، أزمع وأجمع على إعادة ملكه واسترداد بلاده مهما كلفه ذلك من التكاليف الهائلة ، ومهما اعترضته العراقيل ، وقامت فى سبيله العقبات جسّ نبض قومه وجاس خلال ديارهم لتكوين قرة وتوحيد كتلة للوصول إلى غرضه

الشريف ، فرأى الجوّ غير صالح لذلك والظروف لاتساعده فيما أراد ، ورأى أنه ليس من الحكمة ولا من الشجاعة أن يدفع قومه لحرب يافع الذين بيدهم الحصون والمعازل والمؤن والدخائر . فسافر إلى الشحر سنة ١١١٧ للاستطلاع على الحالة السياسية هناك ، فرأى أنه من السهل أن يفاجئ الشحر بقوم من الخارج ، فصار يكتب إمام اليمن ويستنجده وتكفل بأشياء .

ولما آنس فيه الرضا سار إليه ، وحثه على إرسال النجدة ، فأمر الإمام الحربى عامل تهامة بجمع المحاييس لديه من حاشد وبكيل وأن يجهزهم في البحر للرحيل إلى الشحر ، فبتباطأ الحربى في تجهيز الجيش ، لأنه يعتقد أن الهجوم على يافع على جانب عظيم من الخطورة ، فأنبأه الأمير عمر بن جعفر الكثيرى أن احتلال الشحر ليس بعسير ، لأن عدد يافع فيها قليل ، وأنهم إذا فوجئوا بالهجوم فليس في استطاعة قودهم بمحضرموت الوسطى أن يرسلوا إليهم المدد لبعده المسافة وطول الشقة ، فأرسل الحربى جيشاً تحت قيادة الأمير عمر بن جعفر الكثيرى ، ولما وصل إلى الشحر وقد انتصف الليل وساد المدينة الهدوء والسكون ، هجم بجيشه فهبّ الناس من مراقدهم . وذعروا لوجود الأعداء بينهم ، وحقّ لهم أن يذعروا ، إذ لم يطرأ على بالهم ذلك الهجوم ، ولم يدر بخلداهم ذلك الاحتلال ، وما كانوا يعتقدون أن الأمير عمر بن جعفر الكثيرى ، وقد كان بالأمس يحالسههم ويسامرهم كضيف كريم يأتي بجيش من اليمن ويحتلّ البلد ، ولكنها السياسة فوق كلّ شيء ، وهو معذور في ذلك بعض العذر ، لأنه إنما كافح وجالد لاسترداد ملكه الذى اشتراه آباؤه من كندة بالدم ، واستولى عليه يافع عفواً بلا تعب .

ومما يجدر بالذكر أن الأمير عمر بن جعفر لم يسمح لجيشه الزيود بقتل أى شخص من يافع وغيرهم ، كما أنه منعهم عن السلب والنهب ، وأذى الناس ، الأمر الذى جعل بعض الجنود ينقمون عليه ، ويرمونّه بالجبن ، ذلك لأنهم يعتقدون أنهم لم يأتوا لإنقاذ ملك الكثيرى فحسب ، بل وللنهب والسلب أيضاً ، كما فعل سلفهم في أيام أحمد بن الحسن الصنعى (سيل الليل) .

لما تمّ له احتلال الشحر ، استدعى جماعة من قومه وولاهم بعض الأمور ، ثم

عزم على مهاجمة يافع في حضرموت الداخلية لاسترداد ما بقي من ملكه في أيديهم ، فوجد أن ذلك مجازفة ، وأنه من الخطورة على جانب عظيم ، فان الحصون والمعقل في أيديهم وفي صفهم نهد وآل تميم ، ففضل البقاء في الشحر ، ثم أعاد الجيش إلى اليمن بعد أن زودهم بالهدايا والمال للإمام ، ولما رجع الجيش إلى اليمن ثار يافع ضد السلطان عمر بن جعفر ، وخلعوا طاعته ، وأظهروا الاستقلال التام ، فانسحب الأمير عمر بن جعفر من الشحر إلى اليمن محسورا مقهورا . كان ذلك كله بدون أن يحدث قتال بين الطرفين ، وإنها لغلطة الأمير عمر بن جعفر نفسه ، فقد أعاد الجنود اليمنية ، ولم يحصن نفسه ولا بلده بقوم من عشيرته . ولما وصل إلى صنعاء مكث هناك حتى إذا قام بأمر اليمن المتوكل القاسم بن الحسين قام يحرّضه على إرسال جيش إلى حضرموت .

وفي سنة ١٢٢٩ انتخب الإمام ٤٠٠ من أبطال دهمة ، وجعل عليهم الأمير عمر ابن جعفر ، فسار بهم إلى حضرموت ، وهجم على الشحر وأخذها بعد قتال دام أياما ثم أرسل إل ٤٠٠ جندي لاسترداد حضرموت الداخلية ، وقد أشعرهم بأن ينتظروا في عقبة وادي العين لقبائل آل كثير ليهجموا على يافع ، ولكن من سوء حظّ اليمنيين أنهم لما وصلوا إلى عقبة وادي العين لم ينتظروا آل كثير ، فانحدروا على نهد مغرورين بقوتهم ، مدفوعين بنشوة الانتصار على الشحر ، ولم يعلموا أن أمامهم قوما لا يخشون الموت ، ولما علم نهد بقدمهم اتحدت كلمتهم واجتمعت قلوبهم غاضين النظر عما بينهم من التشاحن والتناحر ، وأحاطوا بالعدو من كل جانب وقتلوه عن بكرة أبيهم ولم يسلم أحد من ال ٤٠٠ جندي ، فتألم الأمير عمر بن جعفر الكثير لذلك أشدّ الألم ، وأرسل للإمام يعتذر له فيما حدث في اليمنيين ، وكان المنتظر من الإمام أن يرسل جيشا إلى حضرموت يضرب به يافع وآل كثير الذين هم السبب في هلاك رجاله ، ولكنه لم يفعل لاشتغاله بالفتن الداخلية في اليمن .

الدولة الياضية

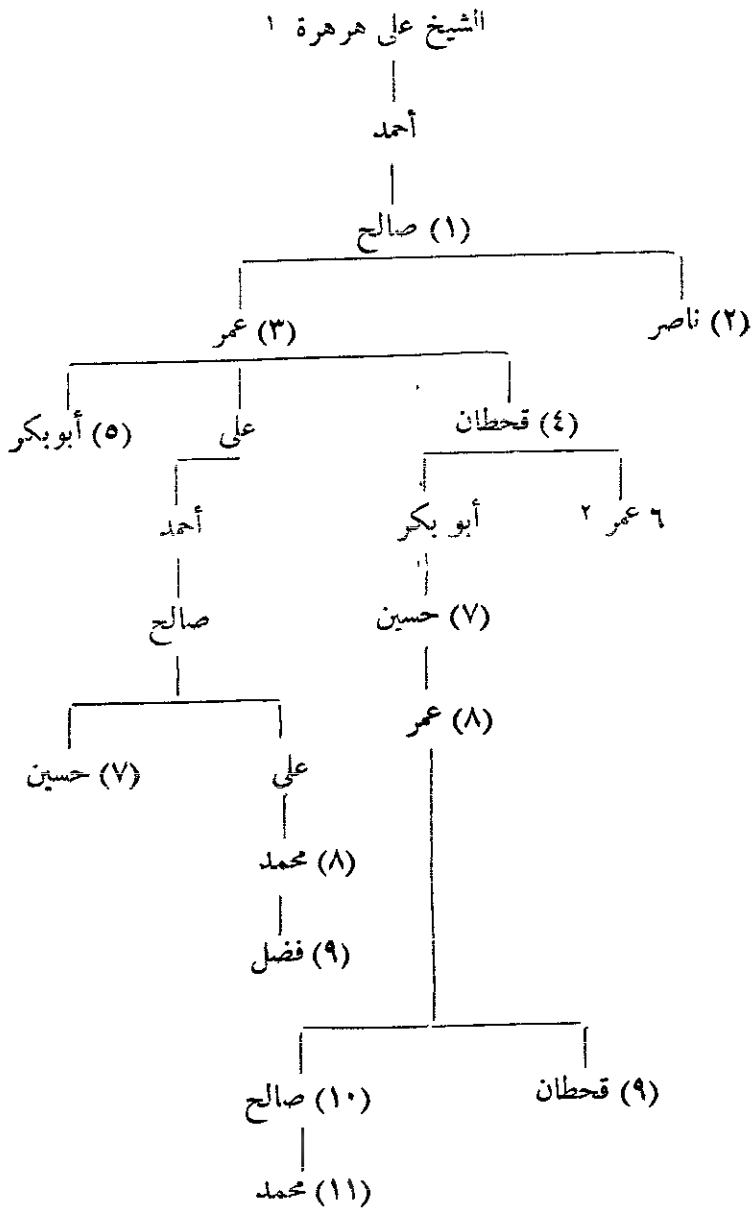
في دورها الأول

ياض أعظم قبائل حمير وأشدّها قوّة وأصعبها مراسا وأكثرها عدداً، ولبسالتهم وكرامتهم وتفاينهم في النجدة لغيرهم ، كان يستعين بهم آل رصاص والعوالق والعبادلة ١ حين يهجم عليهم فاتح أو يسطو عليهم جائر ، ويستنجدون بهم عند حلول الكوارث وحدوث النوازل ، فكان ياض يأتون إليهم سراعاً، ويقاتلون في صفوفهم ضدّ العدو دون أن يأخذوا على ذلك أجراً ، وقد استولى ياض على عدن ولحج وأبين في عهد العثمانيين باليمن وحكموها من سنة ١٠٤٢ إلى ١٠٥٤ ، وحاربوا أئمة صنعاء الذين كانوا يرسلون جيوشهم للاستيلاء على البلاد الياضية ، واستمرت الحروب بينهم وبين ولاية اليمن عشرات السنين من عهد السلطان صالح بن أحمد هرهرة ، إلى عهد السلطان قحطان بن عمر هرهرة ، وفي النهاية كان النصر حليف ياض ، حيث طردوا الجنود اليمنية من حدود بلادهم العليا والسفلى وملحقاتها كلحج وأبين والشعيب وجبن ونعرة والربيعين والظاهر وجبل حرير وحالمين ؛ ثم استمرت الحروب بعد ذلك بين الفريقين حتى نهاية سنة ١٣٣٧ حيث تدخل الإنجليز بينهم وعقد صلحاً متيناً . ويبلغ عدد ياض في بلادهم العليا والسفلى نحو ١٤٠ ألفاً ، ويقال لهم ياض أو اليواض أو بنومالك

(١) العبادة ومنهم آل محسن سلاطين لحج ، فخذ من آل سلام من ذرية السلطان محسن بن فضل بن محسن ابن الشيخ فضل بن علي بن سلام بن علي السلافي ، وآل سلام فخذ من ياض من بيت كلد قريتهم في بلاد ياض تسمى بركات ، وقد كتبت وثيقة بختم السلطان سيف بن قحطان بن عفيف الياضي هذا نصها : « خطنا الكريم ورسمنا العلي الفخيم شاهد بيد الشيخ سلام بن علي العبد لى لأنه منا وإلينا ، وأنه حليف ولا عليه عروضة من أحد ، بل هو من جملة كلد ، وهذا خطنا شاهد بيده ، وحسبى الله ونعم الوكيل . بتاريخ شهر رجب سنة ١١٢٥ هـ . قال الأمير أحمد بن فضل بن محسن العبد لى في كتابه (هدية الزمن) : « واما آل سلام فن ياض القارة » . وقال : « ومن المحقق أن الشيخ فضل كر مجموع ياض على الجنود الإمامية التي في لحج ، وأن السلطان سيف بن قحطان جاء بنفسه إلى لحج وحاصر أصحاب الإمام جملة أشهر حتى أرجع الشيخ فضل ابن علي إلى حكم لحج وعدن ، وأخرجوا منها أرتبة الإمامية . وعلاقة الشيخ فضل بن علي وصهارته بأمرأ ياض وتردده إلى ياض كل ذلك معلوم » . وقال : « ولما قتل أحمد بن صلاح السلافي من السعديين انتقلت زوجته وهي من أميرات ياض بأولادها إلى ياض ، وسكنوا مع أقاربهم من أمراء ياض في خنفر . . . » .

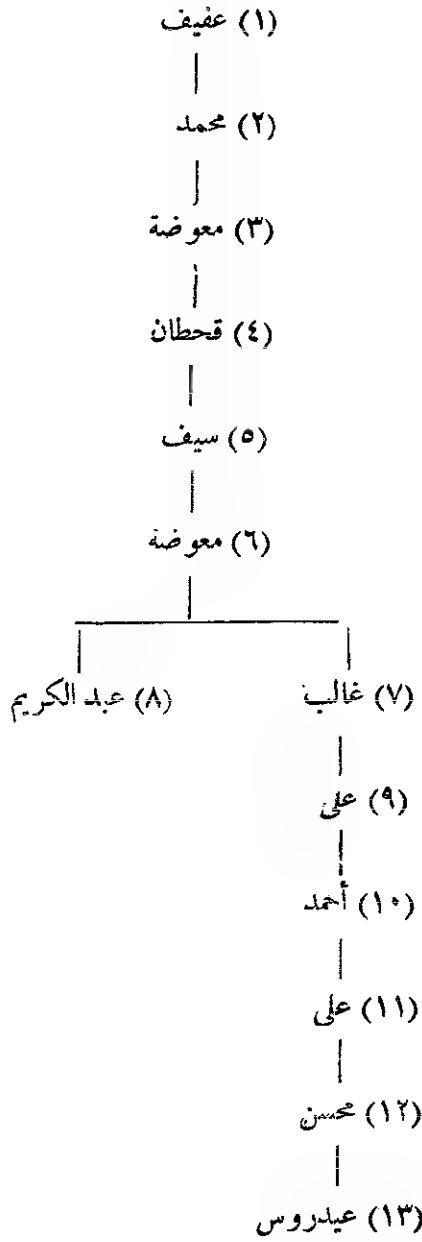
وهم يحكون أنفسهم بأنفسهم ، وينقسمون إلى قبائل كالوسطة والطبي وبنى قاصد ،
وتنقسم القبائل إلى أفخاذ وبطون كأفخاذ الوسطة القعيطى والخلاقى وآل نقيب
وآل على جابر وآل على الحاج والجهورى والرشىدى والسعيدى والضريبي ،
وتتفرع من القعيطى بطون : كآل دهرى وآل حداد وآل مدشل وآل مخارش
ولحمدى والنقيب وغيرهم . وأفخاذ الطبي هم آل هرهرة وآل عفيف والبكرى
والمرفدى والمصلى والحضرى والفضلى وغيرهم .
وأفخاذ بنى قاصد هم آل يزىدى والبطاطى والذيانى والزغلى والعمرى وآل
ظاهر والرابع ، وغيرهم .

سلاطين يافع في البلاد السفلى

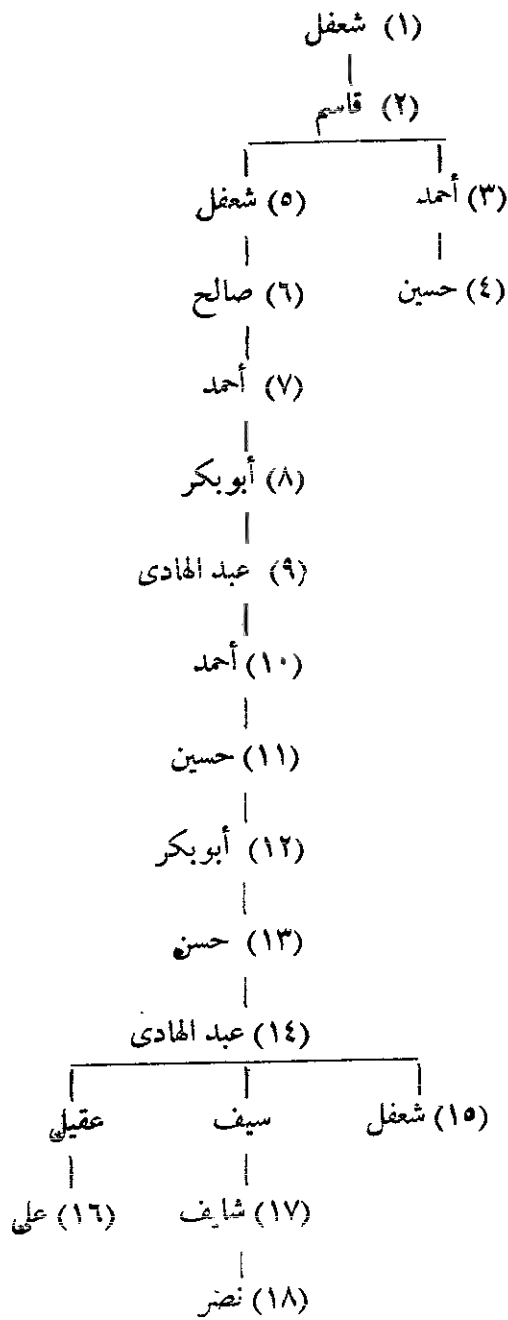


- (١) اشتهر الشيخ على هريرة بالعلم والورع والتقوى والصلاح، وكان قاضياً في يافع ولذلك لقب بالشيخ .
 (٢) بعد وفاة السلطان عمر انقسم يافع ، فوالت الوسطة الأمير حسين بن صالح ، وولت الظبى الأمير حسين بن أبي بكر .

سلاطين يافع بنى قاصد



أمراء خرقه والضالع من يافع



استقلّ يافع (الرتب) بالأمر في تريم وسيون وشبام وملحقاتها ، وفي الشحر والمكلا ، وصاروا يصدرّون الأحكام بأسمائهم وتحت مسؤوليتهم ، ولقد ساعدتهم الظروف على توطيد مركزهم ، وتوسيع سلطتهم حيث لم يقم آل كثير بمناوأتهم ، وإثارة الاضطرابات والمشاغبات ضدّهم عشرات السنين ، كما أن القبائل الأخرى لم تعكر صفاء الجوّ السياسى ، ولم تعبث بالأمن ، فكان السلام يسود الحواضر والرخاء باسطة ذراعيه على البلاد ، وقد هاجر كثير من بيوتات يافع من بلادهم باليمن إلى حضرموت ، وطاب لهم المقام هناك وهناء العيش .

آل غرامة :

وكان أمير تريم الشرقية عبد الله عوض غرامة اليافعى حازما يقظا على المهمة عزيز النفس ، علم بحركة بعض آل كثير وتحفّزهم لاسترداد ملكهم ، فأرسل رسله إلى يافع في شبام وسيون ليكونوا على حذر ، ويستعدّوا للطوارئ ، وعقد مع آل تميم معاهدة صداقة وولاء يستعين بهم عند مسيس الحاجة ، ثم شرع يعمل للقضاء على دعوة آل كثير ، ولكن من سوء حظّ قومه أنّه مات ، وقام بالأمر بعده ابنه عبد القوى بن عبد الله غرامة ، وكان هذا قصير النظر ضيق الفكر طائشا مستبدّا ظالما ، كان مبعوضا لدى الناس حتّى لدى بعض عبيده ، وكان متأثرا بسلطة آل باعلوى الروحية إلى أقصى درجة .

يافع (الرتب) في الثغرين :

أما هؤلاء فكانوا بمعزل عن إخوانهم بحضرموت الوسطى ، وكان العلائق بينهم كادت تنقطع لإعراض كل من الفريقين عن الآخر ، وكان اعتمادهم عظيما على حاصل الجمارك ورسوم القوافل التي ترد إلى أسواق الشحر والمكلا ، ولم يكن للجemark ولا لرسوم القوافل حدّ معين ونظام معلوم ينفذ على الجميع ، وإنما كان السماسرة هم الذين يفرضون رسوم الجمارك بحسب عرفهم ، وكذلك كانت الحال في رسوم القوافل التي ترد إلى شبام ، فإن الأمر كان بيد السماسرة .

آل بريك :

كان ناجى بن على بن بريك اليافعى أمير الشحر . ولما مات قام بالأمر بعده ابنه على ابن ناجى بن بريك ، وكان من أكبر الشخصيات البارزة ، كبير العقل عظيم الحلم على الهمة شجاعا جوادا ، ولقد أخضع بحكمته وشدته قبائل الحموم التى كانت تقطع الطريق وتنهب السابلة وتعبث بالسلام ١ .

آل كسادى :

كان أمير المكلا المقدم محمد بن عبد الحبيب الكسادى اليافعى ، وفى أوائل أيامه كانت المكلا عبارة عن أكواخ قائمة على أرضها من غير نظام ، وكان ميناؤها خامل الذكر قليل الأهمية ، وكانت القوضى ضاربة أطناها هناك ، ولكن فى أواخر أيامه تحسن الميناء وانتظم أمره وأزيلت منه القوضى وتقدم تقدما محسوسا بفضل الأمير النبيل صلاح بن محمد الكسادى ، فقد بذل كل ما استطاع لإصلاحه وتنظيمه وعمل كل مقدوره فى جذب المسافرين إليه حتى أصبح ينافس ميناء الشحر ويزاحمه ، ويقضى على شهرته ولم يكن اهتمام آل كسادى مقصورا على إصلاح الميناء وتنظيم شؤونه ، بل وجهوا أفكارهم نحو إصلاح مدينة المكلا حيث أقطعوا الناس أراضى من غير ثمن لينبوا فيها دورهم ، ومنحوا أهل المتاجر التسهيلات حتى انتقل بعض التجار من الشحر والغيل إلى المكلا واستوطنوها ، فانتعشت السوق وازدادت حركة البيع والشراء ، وأخذت ثروة الأهالى تنمو نمواً سريعاً .

ابتداء ظهور مساعى آل باعلوى السياسية ١

فى سنة ١٢٢١ حاول إسحاق بن عمر بن يحيى باعلوى الاستيلاء على المكلا . كان فصيح اللسان قوى الحجة كبير النفس كثير المطامع ، وكان متظاهراً بالصلاح والورع والتقوى ، كثير البكاء أمام الناس حينما يسدى لهم نصائحه ويلقى عليهم مراعظه وقد ملك قلوب الناس بتلك المظاهر والمزايا ، واستعبد العوام لأغراضه ونواياه ، ولقد جمع مالا كثيراً من التذور . والقرايين التى تقدم باسم البركة وجلب الرزق .

(١) آل باعلوى ، ويقال لهم أحياناً العلويون سبق ذكرهم فى صفحة ٧٧

سافر إسحاق إلى بعض موانئ البحر الأحمر وجمع من المقاهي والبارات قوما ورحل بهم في أربعة مراكز شرعية كبيرة ونزل في بروم ليعد الهجوم على المكلا . ولما بلغ ذلك إلى الأمير صلاح بن محمد الكسادي اليافعي جمع رؤساء يافع وشاورهم في الأمر ، وبعد تبادل الآراء أشار عليهم محجم بن علي بأن لا فائدة من الانتظار ، وأن الطريقة الناجعة هي الهجوم عليهم ليلا وهم في غراباتهم ، فجهز الكسادي عشرين سنوبكا من يافع وعبيد وأبحر بهم . فوصلوا بروم عند مطلع الفجر ، فهجموا على إسحاق وقومه طعنا بالسلاح الأبيض حتى قتلوا أكثرهم ، وفر إسحاق وبعض رجاله في مركب ، وأرسي بشرمة ، وهناك أنزل فلول رجاله ومدافعه وسار بهم إلى الديس بعد أن انضم إلى صفه جماعة من الحموم ، فقابلهم حامية الديس من آل غرامة وعبيدهم فانهزم الأعداء شر هزيمة وهرب إسحاق إلى جده ملوما محسورا .

وفي أيام أمير تريم عبد القوى بن عبد الله غرامة اليافعي تحرك نشاط آل كثير وانتشرت دعوتهم واتسع نطاقها ، وكان النبيل عبود بن سالم الكثيري وهو من أعظم رجالات آل كثير وأكثرهم شجاعة وإقداما يقوم بأعظم قسط من الدعاية لقومه بواسطة محسن بن علوي الصافي باعلوي ، وعبد الله بن عمر بن يحيى باعلوي . وجعفر ابن شيخ السقاف باعلوي ، وكان هؤلاء ومن يلحق بهم من آل فقيه وآل سبايا يتظاهرون أمام يافع بالصدقة والولاء وحسن المعشر ، وكانوا رحالين بين تريم وسيون وشبام وملحقاتها ، وحينما يأتون تريم ينزلون ضيوفا في قصر الأمير عبد القوى غرامة اليافعي ، فيستلمهم الأمير ويحتفي بهم احتفاء عظيما ويكرمهم إكراما حاتما ، ويتظاهر هؤلاء أمامه بالولاء له ولقوم يافع ، ويحطون من قدر آل كثير ويرمونهم بالضعف والتخاذل ليثبطوا همته ، ويوهنوا عزمه ويميتوا فيه روح الحركة والنشاط ، وكان الأمير يأخذ كلامهم عن حسن نية وصفاء سريرة ، ولا يعلم أن أولئك الضيوف أعداء في شكل أصدقاء . وذئاب في صورة حملان ، وكذلك يعمل هؤلاء الجواسيس في سيون وشبام ، ويستطلعون أسرار يافع ومكنوناتهم ، فإذا انتهوا من مهمتهم عادوا إلى آل كثير وقدموا إليهم برامج أعمالهم ودسائسهم ، ولقد مضت على تلك الحال سنوات انتشرت في خلالها دعاية آل كثير ، وسار الزعيم عبود بن سالم الكثيري

إلى غرب حضرموت ، وتعاهد مع العوالق والكرب على الصداقة ليستعين بهم عند الضرورة، ولقد أصبحت تريم في موقف حرج جدا، ولكن غرامة لم يأخذ حذره بالرغم عن كثرة تنبيهات بعض آل تريم له النصائح التي يسلمونها نحوه ، ليكون على استعداد لما عساه أن يحدث من الطوارئ .

الفن بين يافع (الرتب) :

كانت أحكام ولاية يافع عادلة ، ومعاملاتهم مع الرعايا حسنة ، ثم ساءت حالهم وتغيرت طباعهم وظهروا بمظهر الكبرياء والقسوة والشدّة في غير الحق . كما أنهم لم يعملوا جديدا لإصلاح العباد، ولم يبذلوا من أموالهم شيئا لتنشيط العلم وتوسيع نطاقه ، وتشجيع العلماء والفضلاء ، ولم يفكروا كثيرا ولا قليلا في توسيع نطاق حكمهم وبسط نفوذهم ، ولم يعملوا لتوثيق العلائق وتقوية الصلات بينهم وبين القبائل الخارجة عن حدودهم كنهـد والعوابثة والجمدة وقبائل دوعن وغيرهم ، فقد رضوا بالحكم في دائرة ضيقة في تريم وسيون وشبام وملحقاتها وفي الشحر والمكلا ، وفاتهم أنهم وبالأخصّ الذين في تريم وسيون محاطون بآل كثير من يلحق بهم كالعوامر وآل جابر وآل باجـرى ، الأمر الذين يلجئهم لأن يأخذوا حذرهم ويستعدوا للطوارئ وحوادث الأيام ؛ ثم إن المنافسة فيما بينهم على السلطة اتسع نطاقها وتفاقم خطبها وتطايـر شررها ، وثارـت الفنـر الوشايات ، واحتدم النزاع بين روساء يافع في سيون ، وبين آل عبد القادر القائمين بإمارة نصف تريم ، وآل غرامة القائمين بإمارة النصف الآخر منها : وكان النزاع بين آل عبد القادر وآل غرامة قديما من عهد الأمير عبد الله عوض غرامة ، ولكن كان هذا الأمير يداريهم ويراعيهم ويتنازل لهم عن بعض مطالبهم حفظا للأرواح من أن يذهب ضحية الطمع والحشع وحبا لجمع الكلمة وتأليف القلوب وتوحيد الصفوف : واكن جاء بعده ابنه الأمير عبد القوى ، وكان هذا طائشا قاسيا ، فازدادت الفتنة بينه وبين آل عبد القادر واشتعل لهيبها ، وثارـت الحرب بينهم في تريم حتى انقطعت حركة التجارة ووقف عمل الفلاحين ، وساد المدينة الخوف والرعب ؛ ولما رأى آل عبد القادر أن لاطاقة لهم بمناوشة آل غرامة ، ساروا إلى زعيم آل كثير

الأكبر غالب بن محسن بن عبد الله الكثيرى^١ فأمدته ٢٠٠ رجل ، وكان عدد آل عبد القادر سبعين رجلا مع عبيدهم ، وعدد آل غرامه في تريم ١٢٠ مع عبيدهم ، ثم جاء إلى تريم عبد القادر بجيشهم تحت قيادة عبود بن سالم الكثيرى على حين غفلة ، فبهت آل غرامه ورأى الأمير عبد القوى غرامه أن الجريمة جريمته ، حيث لم يسس آل عبد القادر بكياسة ولين ، كما كان شأن والده معهم . أمسى الأمير في موقف حرج ، وأظلمت أمامه الدنيا وضاق ذرعا ، فأشارت عليه أمه وكانت أكثر منه صبرا وجلدا على مكافحة المخاطر ومكابدة النكبات بأن يتظاهر لآل كثير بالرغبة في بيع نصف تريم لهم ، حتى إذا جاء وفداهم للمفاوضة واجتمعوا في القصر يشعل من تحته البارود ليهلكوا عن بكرة أبيهم ، ولكن الأمير عبد القوى امتنع في بادئ بدء ، ثم عدل عن رأيه وأراد تنفيذ مكيدة والدته ضد آل كثير ؛ ولما اجتمع آل كثير في قصر الأمير عبد القوى وكانوا ٣٠ رجلا وفيهم من آل باحرى والعوامر ، وفي مقدمتهم عبود بن سالم الكثيرى وعبد الله بن صالح الكثيرى ، انسحب الأمير من الجلسة ، وأراد أخوه أن ينسحب أيضا ليشعلا قنابل البارود في آل كثير ، ولكن عبود بن سالم الكثيرى أدرك أن مع آل غرامه مكيدة ، فلم يسمح لغرامه بالانسحاب وكان الأمير عبد القوى في انتظار أخيه ، ولكن والدته أمرته بإشعال البارود عليهم جميعا ، فامتنع الأمير شفقة على أخيه وخوفا من العاقبة ، وقد عاتبته والدته بعد ذلك عتابا مرا ، فاعتذر لها بوجود أخيه بينهم ، فقالت له كلمتها المشهورة « ليحترق أخوك معهم وهب أننى أخرجته سقطا » .

ثم سار إليهم للمفاوضة ، وبعد الغداء خرجوا جميعا إلى الجامع للصلاة ثم عادوا ، وكان قد تقدمهم في العودة من المسجد عبود بن سالم الكثيرى وعبد الله بن صالح بن مطلق الكثيرى وثلاثة من جماعتهم ، وجلسوا في شرفة القصر من الدور الأول ، فرأتهم والدته الأمير عبد القوى غرامه ، وصعدت إلى أعلى القصر ، وأخذت تدفع بكل قوتها

(١) كان المقدم غالب بن محسن الكثيرى جاء من حيدر آباد بثروة عظيمة ، وكان أحد رؤساء جيش ملك حيدر آباد ، وعلت رتبته لدى الملك لشجاعته وإخلاصه ، وكان ثالث المقرين لديه بعد الجمعدار عوض بن عمير القعيطى الياضى والجمعدار عبد الله بن على العولقى ، وقد وثى به هذان الرجلان لدى الملك حتى اضطر الجمعدار غالب بن محسن الكثيرى للرحيل إلى حضر موت .

جزءاً من حائط السطح القائم فوق عبود بن سالم الكثيرى وجماعته لتقتلهم ، فشعر هؤلاء بالحركة وانحازوا إلى ناحية أخرى ، ونجوا من مكيدة تلك المرأة الجسور كما نجاهم الله من مكيدتها الأولى ، وأخيراً حصل الاتفاق بين الفريقين على أن يحتل آل كثير معاقل تريم وحصونها ، وهكذا خرج الأمير عبد القوى من الأمر مغلوباً مملوماً وما أصابه من مصيبة فيما كسبت يده .

والى تريس :

كان الضربى اليافعى واليا على مدينة تريس ، وليس عنده من الجند غير أفراد من العبيد ، وفى شهر الحجة سنة ١٢٣٢ مرض وشعر بدنواً أجله ، ولم يكن له وارث يرثه فى الولاية ، فأرسل إلى الوسطة ولاية شبام من يقوم بأمر تريس ، فتولى أمرها أحد آل نقيب ، وأخذ يسوس شؤون أهل تريس ، ولكن لم يكن عنده من عشيرته من يشد أزره ، ويعينه فى أموره غير عدد قليل ، لذلك صار آل كثير يناوشونه حتى إنهم حفرُوا خندقاً على مقربة من قصره إلى البئر التى يشرب منها ومنعوا عنه الماء . ولما اشتد عليه وعلى آله العطش ولم يستطع أن يجلب الماء والزاد من الخارج تخلى عن تريس وانسحب بمن معه إلى شبام واحتل آل كثير البلد .

خروج آل بكر من مريمة :

استأنف آل كثير سعيهم لإزالة يافع من بينهم فأرسلوا فرقة منهم إلى مريمة فى صورة ضيوف ، فأكرمهم بنو بكر وأنزلوهم فى بيوتهم على الرحب والسعة ، ولما طاب لهم المقام ثاروا على بنى بكر ، وكان هؤلاء قليلين وأخرجوهم عنوة واستولوا على مريمة ، وسار بنو بكر إلى شبام .

فتنة شبام :

كان أمر مدينة شبام بيد الوسطة من يافع ، وكانوا على وفاق تام هم ومن فى المدينة من يافع وغيرهم ، ومع أنهم لم يأتوا بحير ولا بشر للبلد فقد كانوا محبوبين من الأهالى وفى أواخر عهدهم تنافسوا على السلطة هم وغيرهم من أفخاذ يافع القاطنين فى شبام

وملحقاتها وبعد صلاة عيد الفطر سنة ١٢٣٤ اجتمع يافع أمام الجامع لتبتهة الوالى بالعيد ، وكان من عاداتهم أن يتقدم الجمع من هو أحقّ وأجدر بالتقدم من الشيوخ والأعيان . وفى ذلك اليوم اختلفوا فيمن يتقدمهم واحتدم الخلاف بينهم ، وفى أثناء ذلك تقدم أحد آل على جابر فقتله أحد الحاضرين من يافع ، فأخذ آل على جابر يسألون أفخاذ يافع الحاضرين عن القاتل ليقتلوه ، ولكنهم أنكروا جميعا ، ثم صار آل على جابر يطالبون الوسطة في فقيدهم وتفاقم التشاحن والتنازع بين الفريقين وثار الحرب ، وأخير اعترف أحد آل رشيدى بالجرمة وقتله آل على جابر ، وهدأت الفتنة بعد ذلك بين الوسطة وآل على جابر ، ولكن ظل أثرها في النفوس كامنا فتنافر الفريقان وتقاطعا وكادت الحرب تعود جذعة ، ثم رأى أفراد من أفخاذ يافع في شبام أن الفتنة لاتزول مادام ولاية شبام من يافع ، وأن هؤلاء لا يدينون إلا لمن يتولاهم من غير قبيلتهم ، لذلك طلبوا إلى عمر بن جعفر بن عيسى بن بدر الكثيرى أن يتولى إمارة شبام وله نصف حاصل المدينة ، فقام بالأمر عمر بن جعفر الكثيرى يساعده في ذلك ابنه منصور بن عمر وعبيده فأخذ الأمير عمر بن جعفر يوطد مركزه ويقوى عضده ، فابتاع عبيدا وضمهم إلى عبيده القدماء وحاول أن يأتى برجال من عشيرته ففنع يافع وفى سنة ١٢٣٧ توفى وقام بالأمر بعده ابنه منصور ، وكان هذا قاسيا مستبدا عديم السياسة والحزم ، متعصبا لعشيرته كل التعصب . أخذ يضغط على حرية يافع ويرهقهم بمطالبه ويضيق عليهم من كل جانب ويسومهم سوء العذاب .

وفى شوال سنة ١٢٥٥ سار أغلب من في شبام من يافع إلى قرى القطن لزيارة أقاربهم ، فاغتم الأمير منصور بن عمر الكثيرى هذه الفرصة وأخرج من بقى في شبام رجالا ونساء وولدا ، واحتل المدينة كلها ، وأعلن استقلاله وقطع علائقه بيافع ، وحصّن معاقل شبام برجال من عشيرته ، ولقد أحدث ذلك أثرا سيئا في نفوس يافع وآلهم أشدّ الألم ، وهم الجانون على أنفسهم والخاربون بيوتهم بأيديهم . فليس من السياسة في شيء أن يولوا الأمير عمر بن جعفر الذى كان جدّه بغلامس ملكا في شبام ولكن التنافس على السلطة هو الذى أعمى أبصارهم .

الدولة الكثيرة

في دورها الرابع

في سنة ١٢٦٠ ابتاع آل عبد الله قرية الغرف من القرامصة آل تميم بمبلغ ١٢٠٠ ريال ، وأقاموا فيها وجعلوها نواة لدولتهم الفتية . وقد أحدثت هذه البيعة ضجة في آل تميم ، فتنقموها على أصحابهم وأجلاؤهم لابطالها ، فحاول القرامصة إبطال البيعة بإرجاع المبلغ فلم يستطيعوا ، وفي سنة ١٢٦٢ توسط سراً محسن بن علوى الصافى وزملاؤه من آل باعلوى في عقد اتفاقية بين آل عبد الله وبين همام صاحب حصن الزناد ، على أن يتخلى عن حصونه لآل عبد الله . ويستلم في مقابل ذلك مرتباً شهرياً مدى حياته ، فكان ذلك : ثم استأنف محسن بن علوى وجماعته العمل . فساروا إلى الأمير عبد القوى بن عبد الله غرامة . وبذلوا كل جهودهم لديه ليفوض جميع شئون تريم لآل عبد الله في مقابل مبلغ كبير من المال . ولما آنسوا فيه عدم الرضى ، استدرجوه حتى أتوا به إلى بيت عبد الله بن عمر بن يحيى باعلوى . وهناك أحاطوه بمكرهم وخدعوه حيث وافقهم على أن يفوض جميع شئون تريم لآل عبد الله ، ويبقى هو كرئيس شرف على عشيرته يافع . ويتسلم من آل عبد الله ٢٤٠ ريال في الشهر ، وكتبت على ذلك وثيقة بحضور بعض رؤساء آل باجرى وآلا جابر والعوامر وآل باعلوى . وبعد تلك الاتفاقية دخل آل كثير تريم بطبولهم فرحين مبتهجين ، واستولوا على شئون المدينة . ولقد اندهش الناس لذلك الحادث الغريب الذى لم يكونوا يتوقعون حدوثه ، وتألّم الأمير عبد القوى غرامة من تلك المظاهر ، وكاد يصعق من التحسر والتألم ، أما يافع الذين فى القطن وسيون فقد غضبوا لذلك أشد الغضب ، وآلمهم سقوط مدينة تريم من بين أيديهم . وبعثوا إلى آل غرامة يحثونهم على القيام لاسترداد تريم : فثارت حميته وفارقت غيرته وأخذ يعدّ العدة ويتحين الفرص من حين إلى حين . وفي محرم سنة ١٢٦٣ جمع الأمير عبد القوى غرامة عبيده ورجالا من يافع

وآل تميم واحتل بهم المحجف وبعض أطراف تريم وأعلن الحرب ، وجاء خمسون رجلا من يافع من سيون وثمانون من آل تميم وانضموا في صفه ، فحمى وطيس الحرب في الطرفين ، راستولى الأمير عبد القوى على حصن الشاطرى وهو أمتع الحصون وعلى المحيضة أيضا ، فازداد موقف آل كثير حرجا واشتد الضيق عليهم وأحاطت بهم الأخطار من كل جانب ، وطال الحصار فاختلف الأمن واضطربت الأحوال . واستولى الأمير غرامة على جزء كبير من تريم وكاد يحتلها كلها ويحوز النصر ، لولا أن الأمير عبود بن سالم الكثيرى أتى بجيش من غرب حضرموت من الكرب والعواتى ، وانحدر على الأمير غرامة من ناحية المحيضة وحصن الشاطرى وحصروا تريم وقطعوا عنه كل المواصلات ، وكاد هو ورجاله يموتون جوعا . وفى ربيع الثانى سنة ١٢٦٣ اضطر الأمير غرامة لأن ينسحب ويحول عبيده للدولة آل عبد الله على أن تدفع له ٢٠٠ ريال شهريا ، وبقي الأمير غرامة في تريم أياما ، ثم شعر بالخذلان والخسران ، وأنى أن يملك في المدينة كفرد من أفراد الشعب بعد أن كان الحاكم المطلق فيها ، وغادرها إلى سيون ثم إلى المكلا تاركا معاشه للدولة آل عبد الله الكثيرية .

أما محسن بن علوى الصافى وزملاؤه فقد استأنفوا مساعيهم السياسية ضد يافع . كانوا يذهبون إلى يافع للتجسس لآل كثير ، ولقد بذلوا كل مستطاع لتعكير الصفاء وقطع الصداقة بين يافع وآل تميم ، كيلا يجد يافع أنصارا ولا أعوانا ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .

وكثير من يافع في سيون لا يزالون يحسنون الظن في محسن بن علوى وزملاءه ، ويعتقدون فيهم الخير والبركة ، إلا أن أفرادا منهم أحسوا أن هؤلاء يتجسسون عليهم لآل كثير ، وفى مقدمة هؤلاء الأحرار النبيلان عبد الله هريرة اليافعى وأخوه عبد الرب ، فقد سعيا بكل مقدورهما في تفهيم يافع دسائس هؤلاء ومساعيهم ضدهم . وصادف أن مرّ النبيل عبد الله هريرة مع ثلاثة من يافع أمام بيت عبد الله بن زين بإسلامة ، فسمعوا محسن بن علوى وجماعته يتهامون فيما بينهم ، فدخلوا عليهم فوجدوهم يكتبون الرسائل الطويلة للدولة الكثيرية بالشئون السياسية في سيون ، وقد بهت الجواسيس حينما رأوا

اليافعيين أمامهم ، ولكن محسن بن علوي الصافي تجلد وثبت في مكانه كأنه لم يحدث شيء ، ولعله أراد أن يتظاهر بالشجاعة والإقدام ، وصار يهدد اليافعيين بالويل ، فثارت ثائرة عبد الله هرهرة وجعل يضربه ضربا مبرحا بعضا كانت في يده ، ومحسن ابن علوي يصيح بأعلى صوته ، ثم اعتقلوه هو وجعفر بن شيخ السقاف وعبدون السبايا وعمر بن عبد الرحمن فقيه ، وساقوهم في الشارع على مرأى من الناس ، ثم حبسوهم في دار الصبان . وأرسل محسن بن علوي إلى رؤساء يافع : أن أطلقوا سراحنا وإلا اقتلونا ، فهذا شرف لنا وأحب إلينا من السجن . فأجابه النبيل عبد الله هرهرة : أما القتل فنحن ننزه سيوفنا عن أن ندنسها بدمائكم ، وأما إطلاق سراحكم فذلك أمر ليس لكم فيه كلام . وبعد مرور عشرين يوما أطلق يافع سراحهم ، ونفوهم من سيون .

وقعة وادي جثمة :

أرسل يافع في الشحر ذخائر وأقواتا ليافع في سيون ، فعلم آل كثير بذلك وتعرضوا للقافلة ، وبلغ يافعا ذلك فخرجوا لحمايتها ، والتقى الفريقان في وادي جثمة ، فثارت الحرب بينهم وقتل من الفريقين كثيرون ، وكان النصر حليف آل كثير . أما القافلة فقد انسلا بها جمالوها في أثناء الحرب إلى أسفل الوادي ، وانحدروا إلى الناحية الشرقية في طريقهم إلى سيون ، ولكن جماعة من العوامر استولوا عليها وأتوا بها إلى تريم .

سقوط سيون :

لقد كان انكسار يافع في وادي جثمة أكبر مشجع لآل كثير على احتلال سيون وكأنه انكشف لهم ضعف يافع في سيون وعدم القدرة على المقاومة والدفاع ، فقد جهز الأمير عبود بن سالم الكثيري ألفين من عشيرته ومن العوامر وآل باجري وآل جابر والحموم وسار بهم إلى سيون ، وحاصرها ثلاثة أيام ، ثم أمر رجاله بالهجوم من الناحية الشرقية ، وهجم هو بجماعة منهم من الناحية الغربية ، فهلع الناس مما رأوا

وتوقعوا شرًا مستطيرا ، ولكن القائد عبود بن سالم أصدرو أوامره لرجاله بعدم إيذاء أى شخص لا يريد الحرب ؛ أما يافع فقد حاولوا الدفاع عن أنفسهم فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، فغلبوا على أمرهم واحتل سيون آل كثير .

هكذا أصبحت دولة آل عبد الله الكثيرة تخطو خطوات واسعة نحو الأمام ، وتزداد قوتها ويتمدد نفوذها ، وتحتل مدينتين هما من أعظم مدن حضرموت وأوفرها عمراناً وحضارة ، والفضل كل الفضل فى ذلك يعود إلى البطلين العظيمين السلطان غالب بن محسن الكثيرى ، والقائد الأمير عبود بن سالم الكثيرى ، فقد عرفا بحزمهما وحكمتهما وسياستهما كيف يوحدان صفوف قومهما ، ويؤلفان بينهم وبين القبائل المجاورة لهم ، ويجعلان هذه القوة فى قبضة يدهما بصرفانها كيف شاءا ويرسلانها أى أرادا ، وبذل السلطان غالب بن محسن أموالا كثيرة للوقوف على أحوال يافع السياسية وما هم عليه من ضعف أو قوة ، من خصام أو وئام بواسطة أولئك الجواسيس والعيون التى كان يرسلها من وراء الستار . وهنا لانسى فضل أولئك الجواسيس على آل كثير فقد أدوا واجبه على أحسن ما يرام ، وفازوا بأغراضهم المنشودة بفضل سلطتهم الروحية التى نفذت فى أحشاء الشعب فلكته ، وأضاعت منه رشده وأعمت قلبه وأصبح ينتقاد لهم ولمن على شاكلتهم من أصحاب السلطة الروحية كما تنقاد الأنعام للرعاة ولأصحاب السلطة الروحية من رؤساء الأديان فى المشرق والمغرب حظا وافرا فى تعبئة الجيوش وإثارة الحروب ، ولكن أكثر رؤساء الدين المسيحى فى الغرب إنما أوقدوا الحروب للمصلحة العامة ، وضد مخالفينهم فى الملة والعقيدة ، كرجال الدين فى روما الذين بذلوا كل مستطاع فى توحيد أمم أوروبا ضد المسلمين أيام الحروب الصليبية ، ولكن أصحاب السلطة الروحية من المسلمين إنما يبذلون مجهودهم لإثارة الفتنة وزرع الخصام بين المتصلين بهم فى الجنسية والملة ، ويعبثون جيش أحمد ليسحقوا به جيش محمود ، هكذا يأكل بعضهم بعضا ، وهم لا يستطيعون أن يعملوا غير ذلك ، وقد يستطيعون أن يعملوا للنفع العام ، ولكن فى ذلك كسادا لحيويهم وفواتا لحطام الدنيا ، فهم يعبدون المادة ويجرون وراءها ، ولا يضرهم من أى وعاء خرجت ، ولا لئى غرض منحت ، ولا يبالون بنتائجها وعواقبها مهما اشد خطرها وتفاقم خطبها .

تأثير سقوط سيون في يافع :

كان استقوط سيون في نفوس يافع أعظم أثر ، فقد اجتمعت كلمتهم وآزمعوا على استردادها بأي حال ، ففي ليلة ٢٧ من شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٥ سرى منهم ومن عبيدهم نحو ١٣٠٠ رجل ووصلوا سيون عند مطلع الفجر ، فهاجموا عليها وكان في معقل سيون نحو ٣٥٠ رجلا مسلحا من آل كثير ومن الحموم والعوامر ، فالتحمت الحرب بين الفريقين وفي الفجر احتل يافع سيون ، وكان عدد القتلى من يافع أربعة منهم عبد الرب بن سالم هرهرة والجرحى ثلاثة ، وقتل من الفريق الآخر عشرة وجرح كثيرون . حدث ذلك كله دون أن يعلم آل كثير في تريم وغيرها ، لأن يافع أحاطوا بسيون وحاصروها من جميع نواحيها . ولما بلغ ذلك إلى آل كثير في تريم آزمعوا وأجمعوا على أن يسردوا سيون ويحاذقوا بأرواحهم في سبيل تخليصها من أيدي يافع ، وقد انضم في صفهم آل جابر والعوامر وآل باجري ، فتكوتت من هذه القبائل ثلاثة آلاف مقاتل وزحفوا على سيون ليلا والسكان غارقون في نومهم من جرأ القلاقل والاضطرابات التي حلت بهم من حرب يافع ضد آل كثير ، ولم يطرأ ببال يافع أن آل كثير يجتمعون بتلك السرعة العظيمة ويهجمون بتلك القوة على سيون بعد انكسارهم الذي لم يمض عليه سوى أيام معدودات ، ولكنها سياسة القائد البطل عبود بن سالم ، وهي سياسة حازمة ، زحفوا على سيون فهب الناس من مراقدهم ، وأخذ يافع حذرهم وجعلوا يدافعون دفاع المستميت ، ولكن سبل آل كثير كان جارفا ، فقد احتل آل كثير سيون وقتل من الفريقين خلق كثير .

محاولة يافع احتلال سيون :

في سنة ١٢٦٧ اجتمع ٤٠٠ رجل من (كلد) وعليهم صائل و ٣٥٠ من (يافع التلد) وعليهم سالم بن علي بن الشيخ على هرهرة ، وساروا إلى سيون لاحتلالها ، وكان أميرها يومئذ السلطان غالب بن محسن الكثيري يحيط به من الأنصار والأعوان ٥٠٠ و ٣٠٠ من العوامر وآل باجري . زحف يافع على سيون فثارت الحرب بين الفريقين

وبدأ آل كثير ينسحبون من المدينة أفرادا وجماعات ، وكاد يافع يحتلونها لولا أن صائل خان قومه حيث استلم عشرة آلاف ريال من آل كثير ، وتظاهر بالانخزال والانكسار وسحب أغلب رجاله ، حتى ظن أنصارهم الذين ثبتوا وبلوا بلاء حسنا أن النصر في جانب آل كثير ، فانسحبوا ولم يبق منهم سوى سالم بن علي هرهرة و١١ شخصا من رجاله اختفوا في دار وأسر آل كثير ١٢ رجلا من عبيد يافع وربطوهم بالحبال ، ثم وضعوهم في حفرة ودفنهم أحياء ؛ أما ابن هرهرة وأعوانه فقد علم آل كثير بوجودهم ، فساروا إليهم وأحاطوا بهم من كل جانب ومنعوا عنهم القوات والماء ، فاضطر ابن هرهرة وجماعته للاستسلام ، فأخذوهم وسجنوهم مقيدين بالحديد ، وجعلوا عليهم عبيدين يحرسانهم ، وفي ذات ليلة حدث في سيون زواج عند أحد الأعيان ، فذهب أحد الحارسين للرقص^١ ، فانتبه ذلك يافع وأتوا إلى العبد الحارس وأخذوا يمازحونه ، حتى إذا أنسوا فيه الغفلة وثبوا عليه وربطوه بحبل في عنقه وشدوه حتى فارق الحياة ، ثم قطعوا قيودهم بمجرد كان أهداه لهم في وسط الخبز أحد الموالين لهم من أهل المدينة ، ثم انسلوا من الدار أفرادا ، وقد انكسرت رجل أحدهم وهو من بني أرض حين نزل من الدور الأول إلى الأرض ، فصاح في جماعته أن احملوني معكم وإلا صحت بأعلى صوتي ، فتركوه ولم يهتموا به ، فصاح بكل صوته ، فجاءه بعض آل كثير وقتلوه وأسروا ثلاثة من يافع ، والتجأ سالم بن علي هرهرة وستة من رجاله إلى ديار آل منياري ، فرحب بهم هؤلاء وأكرمهم ، ثم علم السلطان غالب ابن محسن الكثيري بذلك ، فأرسل إلى آل منياري يطلب منهم اليافعيين ، فامتنعوا في بادئ بدء ثم سلموهم له ، وصادف أن ذهب بعض آل منياري إلى شبام فغيرهم السياسة ولا موهم على تسليمهم اليافعيين للسلطان غالب بن محسن ، فوقع ذلك اللوم في نفوس آل منياري وأزمعوا على أن يعيدوا اليافعيين من عند السلطان غالب ويذهبوا بهم إلى يافع في الحوطة ، فسار ١٦ رجلا منهم إلى سلطانهم غالب بن محسن الكثيري فوجدوه في قصره وحوله ٨ من عبيده ، وطلبوا إليه تسليم يافع إليهم ، فامتنع السلطان فقام آل منياري وأغلقوا الأبواب وهددوه وعبيده بالقتل إذا لم يسلم إليهم اليافعيين ،

(١) الرقص في حضرموت ، ويسميه الحضرم « الشرح » يخالف الرقص المصري المعروف في أكثر مظاهره وحركاته ، وسيأتي الكلام عنه في الجزء الثاني .

فأجابهم إلى ذلك ، وسار آل منيبارى بالياغيين إلى شام في طريقهم إلى الحوطة ، فأثنى السماسرة على مروءتهم وشهامتهم وأمرهم الأمير منصور بن عمر الكثيرى أن يطالبوا يافعا بفك أسرى آل كثير الذين عندهم ، فقالوا إننا سنسلم الياغيين ليافع وهم إن شعروا من تلقاء أنفسهم بالواجب فيأجبنا ، ثم ساروا إلى الحوطة عند الأمير محمد بن عمر القعيطى اليافعى والماس عمر وسلموهم إلى يافع ، فأكرم يافع آل منيبارى واحتفوا بهم احتفاء عظيما ، وحينما أرادوا العودة إلى ديارهم سلموا إليهم أسرى آل كثير وعددهم ثمانية ، منهم ثلاثة من آل عيسى بن بدر ، وخمسة من عبيدهم كانوا أسروا في واقعة العقاد ، وهكذا قوبلت الحسنة بأحسن منها .

واقعة مريز المشهورة :

بعد أن احتل آل كثير سيون ، طمع السلطان غالب بن محسن الكثيرى في احتلال الشحر لتكون ميناء للملكه ، وليكون في غنى عن المرور في ثغر المكلا ، وليوطد مركز دولته في الداخل بما سيحلبه من السلاح وغيره ، ولقد حرصه على ذلك محسن بن علوى السقاف وعبد الله بن حسين بن شهاب وإسحاق بن عقيل وحسين بن عبد الرحمن بن سهل وغيرهم من آل باعلوى ، وألحوا عليه بإرسال الأمير عبود بن سالم الكثيرى إلى الحجاز ليأتى بقوم للحرب ، ويهجم بهم على الشحر من ناحية البحر ، ويهجم هو بجيشه من ناحية البر ، فسافر الأمير عبود إلى الحجاز وجمع قوما من الحجازيين والشوام والأتراك ، أغابهم لا علم لهم بالحرب ولا طاقة لهم بويلاتها ، وسار بهم إلى الشحر بعد أن استولى على خمس مراكب كانت راسية في ميناء الحديد لبعض تجار آل بريك .

ووصل إلى بروم يوم ١٠ من رمضان سنة ١٢٦٦ ، ولما علم النقيب محمد بن عبد الحبيب الكسادى اليافعى أرسل جيشا إلى بروم تحت قيادة ابنته الأمير صلاح بن محمد ، وهناك ثارت الحرب بين الفريقين في البر والبحر ، فانتصر الكسادى وقتل كثيرون من الفريقين ؛ أما الأمير عبود بن سالم الكثيرى فقد سار بجيشه إلى شربة ، وكاد يغرق ورجاله لشدة الأتواء ، ولما بلغ ذلك إلى آل بريك أنشأوا مراصد في الجبل وكننوا فيها ، ولما نزل الأمر عبود برجاله هجموا عليهم وأخذوهم في التكنيل بهم ،

واستولوا على ثلاثة مراكب من مراكب قوم الأمير عبود ، وسار الأمير عبود إلى قصيعر ، ولما علم السلطان غالب بن محسن الكثيرى باندحار الأمير عبود وخذلان جيشه ، جهز جيشا من عشيرته ومن العوامر والحموم وانضم في صفه عبدالله القحوم العمودى مع من تبعه من قبيلة الدين وأربعين شخصا من آل باعلوى ، منهم محسن ابن علوى السقاف ، وعبد الله بن حسين بن شهاب ، وإسحاق بن عقيل ، وسار هذا الجيش الحليط شطر الشحر ، ولما وصلوا إلى دفيقة تركوا بعض ذخائرهم هناك وجعلوا عليها آل باعلوى وبعض حملة السلاح ، وانقسم الباقون فرقتين : إحداهما اتجهت إلى الشحر من ناحية البحر ، والأخرى من ناحية البر : ثم أثاروا الحرب على الشحر من البر والبحر ودامت الحرب بضعة أيام ، وكاد آل كثير يحتلون الشحر لولا أن أمير المكللا الكسادى اليافعى أمد أهل الشحر بـ ٥٠٠ جندي تحت قيادة ابنه الأمير صلاح بن محمد ، جاء هذا المدد فهجم على حصن مرير الذى احتله جنود الأمير عبود بن سالم ، وكأن الموت يدفع جنود الكسادى دفعا ، وكأنهم اختاروا الموت على الحياة ، فقد كانت الطلقات الذارية تساقط عليهم مدرارا من الحصن ومن المراصد الأخرى ، ولكنهم استمروا فى الحملة بينما القتلى منهم يتساقطون على الأرض أفرادا وجماعات ، وأخيرا استولوا على الحصن وما حوله من المراصد ، وانسحب جنود آل كثير القهقرى بعد أن قتل منهم خلق كثير ، وهرب أهل دفيقة تاركين وراءهم الذخائر ، وقد استولى عليها جنود الكسادى اليافعى ، وهذه الواقعة تسمى وقعة مرير ، وهى من أكبر الوقائع بين يافعى وآل كثير . فإن عدد القتلى تجاوز ألف نفس ، أما الجرحى فكثيرون .

نهوض يافعى لاسترداد سلطتهم من جديد :

قبع يافعى فى خشامر وخور وفى غيرهما من قرى القطن ، وكأنهم كرهوا التنازع والتناحر على السلطة والملك ، وتركوا الأمر كله لآل كثير يحكمون البلاد ويسوسون العباد كما يشاءون ، دون أن ينافسهم فى الأمر منافس ، أو يعترض سبيلهم معترض ، أو ينازعهم أحد فى الحكم والسلطان . كره يافعى الحكم وقطعوا الأمل فى استرداد سلطتهم وإعادة ملكهم ، ورضوا

وقنعوا بالقبوع في ديار القطن ، ولكن أمير شبام منصور بن عمر الكثير أخذ يشن الغارات عليهم من حين إلى آخر ويقلق راحتهم ويعكر جوهم ويزعجهم بالاضطرابات والمشاغبات . ولما اشتدت عليهم مظالم آل كثير وتشعبت مطامعهم فيهم وبالأخص في آل خلافي ، اجتمع أعيان يافع وتشاوروا فيما يكبح مطامع الأمير منصور وقومه ، ويردع عنهم مظالمهم التي أخذت تزداد شيئا فشيئا ، فسافر وفد منهم إلى الجهمدار عمر بن عوض القعيطي اليافعي واستنجدوا به وطلبوا إليه أن ينصرهم ، فأجابهم إلى ذلك وسافر وإياهم إلى خمور وأرسل إلى يافع الذين في بلادهم باليمن ، فجاءه نحو ٥٠٠ رجل ثم جهز بنحو ١٥٠٠ من يافع وعبيد ، وحصروا سعيدة وشبام شهرا فاحتلوا سعيدة عنوة سنة ١٢٧٤ ، وكان عدد القتلى منهم خمسة ومن آل كثير ثلاثة ، وظلوا محاصرين شبام أياما قطعوا خلالها جميع المواصلات ، ولما شعر الأمير منصور بن عمر الكثير بخطورة الموقف وخاف سقوط شبام من بين يديه ، بعث إلى يافع من يسعى بالصالح على أن يحتلوا نصف شبام كما كانوا سابقا ويبقى النصف الآخر له ، فراضى الفريقان بذلك وكان ذلك سنة ١٢٧٤ .

قدوم الشريف حسين :

كان الأمير عمر بن عوض القعيطي اليافعي طلب إلى الشريف حسين أحد أمراء اليمن أن يمدّه برجال من نخبة قومه ليستعين بهم ضد آل كثير ، فجاءه الشريف حسين على رأس ٢٠٠ فارس ، ولكن بعد أن تمّ الصلح بين يافع وآل كثير ، وأراد الأمير عمر بن عوض أن يدفع لهم مصاريفهم ويرجعهم إلى بلادهم ، واكتنهم أبوا إلا الحرب ضد آل كثير ، فلم يجبهم الأمير إلى ذلك فتأثرت نائرة الشريف حسين وهاج ، واتسع نطاق الخلاف بينه وبين يافع حتى تلاحي هو والأمير محمد بن عمر

(١) كان الجهمدار عمر بن عوض القعيطي اليافعي من هاجر إلى الهند سنة ١٢٠٧ ، ولذكائه ونشاطه وشجاعته ودهائه نال لدى ملك حيدر آباد الدكن حظوة كبرى وأولاه أعظم منصب في الجيش ، واتخذ نصريرا له ومعينا في شئونه العامة ، ولقد جمع ثروة عظيمة بذل كثيرا منها لنصرة قومه يافع بحضر موت ، وأوجد لهم ملكا ربواهم مقعدا عليا ، فهو يعتبر المؤسس الأول للدولة القعيطية اليافعية الفتية . وكان له من الأولاد الذكور خمسة وهم محمد وعبد الله ، وعوض وهو بطل التاريخ ويده القيادة وإدارة السياسة ، وصالح ، وعلى وكلهم بهم إلى حضر موت ، إلا صالح بن عمر فقد أبغاه في حيدر آباد يدير أملاكه .

القعيطى وهدد كل منهما الآخر ؛ وفى صبيحة اليوم الثانى ثارت الحرب بين الفريقين فى المسحرة ، فانهزم الشريف وقومه وقتل ابنه وبعض رجاله ، وقتل من يافع اثنان وانسحب بفلول جيشه إلى بلاده مكسوفاً محسوراً .

قتل الأمير منصور بن عمر الكثيرى :

أولم الأمير عوض بن عمر القعيطى البافعى وليمة غداء فى شبام بواسطة مولاه الحاج الماس الحبشى ، ودعا إليها رؤساء يافع والأمير منصور بن عمر الكثيرى ، فأراد الأمير منصور الذهاب للوليمة ، فاعترضته زوجته وكانت يافعية وحاولت منعه عن الذهاب ، وكأنها شعرت أن هناك مكيدة دبرت ضده ، وقالت له : إني أخشى أن تذهب ضحية السياسة ، وإني لأرى الدم يلوح على وجهك . ولكن الأمير لم يصغ إليها ولم يقيم لكلامها وزناً ، فسار وبصحبه خمسة من عبيده ، ولما دخل قاعة الجلسة فى القصر السلطاني أمسك يده سالم بن على بن هرهرة ، وأتى نفر من العبيد وطعنوه عدة طعنات حتى فارق الحياة ، ثم أعلن يافع الاستقلال التام بجميع شئون شبام وذلك سنة ١٢٧٤ .

خروج آل عمر بن جعفر الكثيرى من هينن :

كان السلطان بدر بوطويرق الكثيرى قد احتل مدينة هينن وبنى هناك حصناً على تل مرتفع يسمى حصن فرحة ، وجعل عليها نائباً من عشيرته يحكم البلاد ، ويبحث إليه بالحاصل من العشور ، وقد استقر فيها فى نهاية آل جعفر بن عمر الذين كان آخر من حكم منهم الأمير طالب بن بدر الكثيرى ، ومن سوء حظ هذا الأمير أن اشتد القحط فى عهده فى هينن حيث انقطع المطر سنين ، فأجذبت الأراضي وأفقرت ، ومات كثير من النخل ، وقد ضاق ذرعاً وأظلمت الدنيا أمام عينيه بعد أن احتل يافع شبام ، لذلك اضطر الأمير أن يرحل بأهله إلى جاعة ، ويترك البلد للشعب ، وكان ذلك سنة ١٢٧٥ ، فأصبحت هينن بعد مغادرة آل عمر بن جعفر لها فى اضطراب مستديم ، فقد فقد الأمن وانتشر الرعب فى قلوب الضعفاء ، وانقطع ورود القوافل

فكسدت السوق ، ثم جاءها سالم بن علي بن هريرة اليافعي واحتلها ونادى بنفسه حاكما عليها ، فعاد الأمن وهدأت الخواطر واطمأنت النفوس ، ولكن الأمير سالم لم يمكث طويلا في هين يحكم الناس ويسوس شئونهم ، فقد عاد إلى شبام سنة ١٢٨١ ، ولعل ذلك كان لفقر البلد وقلة موارد الخير فيه .

حرب السحيل :

كان لقتلة الأمير منصور بن عمر الكثيري أعمق أثر في نفوس آل كثير وأكبر وقع فيهم ، فقد اجتمعت كلمتهم واتحدت قلوبهم ضد يافع بالرغم عن وجود النزاع والخلاف بين بعض أفخاذهم ، والمصائب من أكبر الأسباب التي تزيد ما بين القبيلة الواحدة من التنازع والتناحر ، وتوجد بينهم روح التعاون والتناصر ضد العدو المهاجم رابط آل كثير في سحيل آل مهري ، وأخذوا يؤذون المارين بالنهب والسلب ، ويقطعون السابلة ويلقون الرعب والجزع في أطراف مدينة شبام ، ولما أنسوا من يافع السكون والحمود ، أخذوا يشنون الغارة على شبام آناء الليل وأطراف النهار لاحتلالها وإعادة سلطتهم واسترداد إمارتهم عليها ، ولكن كانت غاراتهم تذهب هباء ، فقد حصن الأمير عوض بن عمر القعيطي اليافعي قلاع شبام برجال من عشيرته ومن العبيد ، ثم عقد صلح بين الفريقين ، وقبل انتهاء الصلح بيوم جهز أحمد عامر الحضرمي اليافعي أحد كبار قواد الجيش أتباعه وكانوا ٣٠٠ رجل وأراد الهجوم على آل كثير في سحيل آل مهري ، فلم يوافقهم الأمير عوض ورؤساء يافع وحاولوا منعه ريثما ينتهي الصلح ولكنه أبقى الانتظار ، فسار بقومه إلى سحيل آل مهري ، وثارت الحرب بين الفريقين واحتل أحمد عامر أكثر الحصون ، ولكن جاء من سيون وتريم ٢٠٠٠ رجل من آل كثير ، وأحاطوا بأحمد عامر وقومه ، وكادوا يقضون عليهم ؛ وعلم يافع الذين في شبام وقرى القطن بخطورة موقف أحمد عامر ورجاله ، فلم يغشوه بحجة أن الصلح لم ينته بعد ، وأن أحمد عامر سار من غير رضاهم ، ولما انتهت مدة الصلح أدركوه بـ ١٠٠٠ رجل من يافع ، فحمى وطيس الحرب ، وقتل من الفريقين كثيرون ، وانتصر يافع ، واحتلوا السحيل ، وانسحب آل كثير جميعا إلى سيون وتريم .

محاولة آل كثير احتلال الشحر :

لم تضعف عزائم آل كثير وتخبُّ همهم من صدمة الشحر، ولم يقطعوا الأمل في احتلالها ، ولم ييأسوا من امتداد سلطتهم إلى البحر ، بل أخذ زعماؤهم يوقظون في القوم الحماسة ، ويبعثون فيهم النشاط للعمل .

وفي شهر رجب سنة ١٢٨٢ جهز السلطان غالب بن محسن الكثيري نحو ٣٠٠٠ من آل كثير والعوامر وغيرهم ، وفي مقدمة هذا الجيش القائد عبود بن سالم الكثيري وعبد الله بن صالح بن مطلق الكثيري ، وعايض بن سالمين بن طالب الكثيري ، وهادي بن سيف ، وكان هذا تكفل بربع مصروفات التجهيز ، والثلاثة الأرباع الأخرى على السلطان غالب بن محسن ، زحفوا على الشحر فجأة . ولم يكن آل بريك وغيرهم من سكان المدينة على استعداد للحرب . ولذلك فقد احتل آل كثير الشحر دون أن يلاقوا أمامهم مقاومة شديدة .

صدى سقوط الشحر في يافع :

احتل آل كثير الشحر وكان يافع في شبام ، وقرى القطن هامدين خامدين والكسادى وقومه في المكلا ، والسلطان عوض بن عمر القعيطي في حيدر آباد بالهند ، فجمع يافعا هناك واستشارهم في استرداد الشحر فعاهدوه على ذلك .

ومن أهم الأسباب التي ألحأت السلطان عوض بن عمر للحرب هو ما بلغه أن آل عولقي يوالون آل كثير ويناصرونهم ضد يافع ، فقد سعوا في إيجاد تحالف بينهم وبين آل كثير وآل عمر باعمر أهل الغيل ، وأزعموا على احتلال الشواطئ وطرد يافع منها ، وكان زعيم آل عولقي وهو عبد الله بن علي العولقي الموجود في حيدر آباد يومئذ ومن أكبر أصدقاء السلطان عوض بن عمر القعيطي يمد تلك الحركة بالمال ، ويقوم بأعظم قسط في تنشيط المهم ، وإيجاد جبهة قوية على الساحل لإجلاء يافع ، وإنشاء دولة جديدة له على أنقاض الدولة اليافعية ، وقد غضب عليه السلطان عوض بن عمر وقابله وجها لوجه وأوعده أنه ذاهب إلى حضر موت لذلك حصن الصداع^١ واحتلال

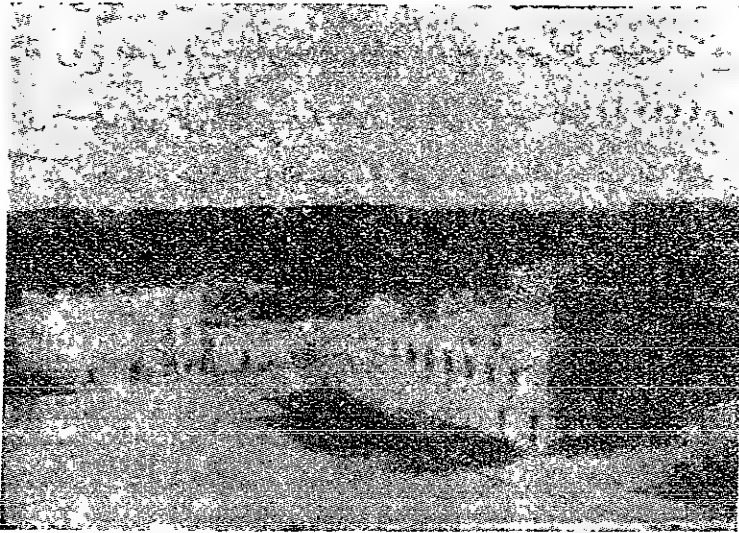
(١) هو حصن منيع جدا قائم على مقربة من غيل باوزير ، بناه الجامعدار عبد الله بن علي العولقي ، وأسكن فيه أهله ، وأحاطه بقلاع صغيرة يقيم فيها الحرس من العبيد وغيرهم .

الشحر وغيل باوزير ، ثم غادر السلطان عوض بن عمر الهند إلى المكلا وبصحبه جماعة من عشيرته يافع و ٤٠٠ من الهنود ، وهناك فاوض أمير المكلا صلاح بن محمد الكسادى اليافعى فى الأمر ، فتعاهد على استرداد الشحر من أيدي آل كثير ، على أن تكون ثلاثة أرباع مصروفات الحرب عليهما ، والرابع الآخر على حسين صالح المصلى وسعيد بن حسين بن على الحاج ، وسعيد بن على النقيب جهزوا ٤٠٠٠ رجل من يافع وآل تميم وهنود وعبيد ، وانقسموا فرقتين : إحداهما حاصرت الشحر بحرا وعليهم صالح حبيب بن على جابر ، وسالم بن على بن الشيخ على اليافعى ، ومحسن بوبك الحداد اليافعى ، وسعيد أحمد الحضرمى اليافعى ، وعمر عوض القعيطى اليافعى ، وحسين صالح الجمهورى اليافعى . والأخرى حاصرتها من شمالها وغربها ، وفى مقدمة هذا الجيش السلطان عوض بن عمر القعيطى اليافعى ومحسن بن نقيب اليافعى ، وعبد الله عوض القعيطى اليافعى .

حاصروا الشحر يومين ، وفى اليوم الثالث أثاروا الحرب ، وفى اليوم الرابع زحف يافع على المدينة وأخذوا يستولون على ديار كثيرة . ولما رأى آل كثير تقدم يافع وحملاتهم المتوالية انسحبوا من الشحر وبقى السلطان غالب بن محسن الكثيرى فى الحصن مع حاشيته واختبأ جماعة من آل كثير والعوامر فى دار باجمال فى دفيقة ، ومن هؤلاء عبود ابن سالم وعايض بن سالمين بن طالب وهادى بن سيف وعبد الله بن صالح بن مطلق ونفر من أعيان العوامر . احتل يافع الشحر فضاطر السلطان غالب بن محسن الكثيرى للتسليم وطلب إليهم أن يسمحوا للنساء والأطفال بالرحيل من المدينة فأجابوه إلى ذلك وخرج النساء وأولادهن وقد لبس السلطان غالب بن محسن لباس امرأة وخرج دون أن يشعر يافع به .

ثم استولى يافع على كل من الشحر ، وكان عدد القتلى منهم نحو ٩٠ ومن آل كثير نحو ١٣٥ وعدد الجرحى من الفريقين كثيرون . أما الذين فى دار باجمال فقد أراد السلطان عوض بن عمر القعيطى أن يصوب عليهم المدفع ويبيدهم عن بكرة أبيهم لأنه رأى أن هؤلاء وهم الأعيان البواسل إذا أطلق سراحهم يعودون إلى قومهم

فيثيرون الحرب من جديد ، ولكن رؤساء يافع لم يوافقوه على ذلك فأطلقوا سراحهم
باحسان

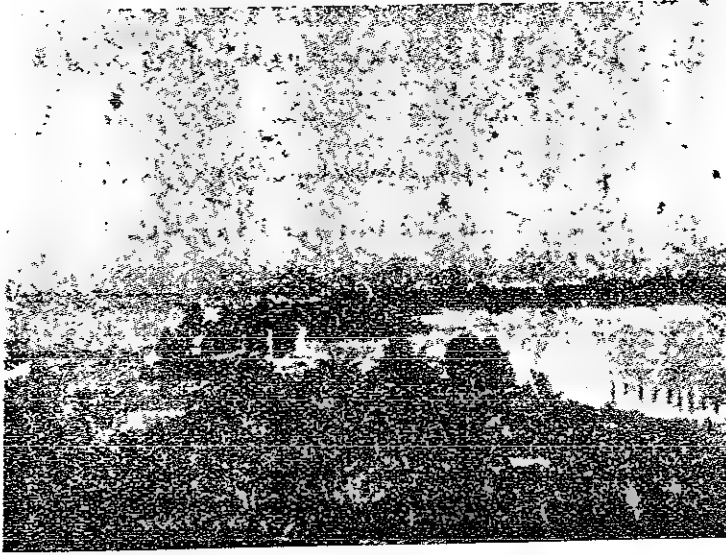


« غيل باوزير كما هي الآن »

احتلال غيل باوزير :

ثم أراد يافع أن يزحفوا على الغيل ولكنهم خافوا أن يمدّ آل كثير أهل الغيل
بجيش ويتحد هؤلاء مع آل عمر باعمر والعوالق ضدهم ، لذلك أرساوا ٢٠٠ رجل
من يافع وآل تميم إلى النويدرة لمحاصرة تريم تحت قيادة عبد الخالق الماس عمر ،
واستصحب هؤلاء جماعة من الحموم ، وحينما وصلوا حدود الحموم وفي بقعة عديمة
الماء ، أثار جماعة الحموم الحرب على رفقاءهم من يافع وآل تميم ، وقتلوا منهم غدرا
٣٥ رجلا ، وسار الباقون من يافع وآل تميم إلى تريم وحاصروها . وفي أثناء حصارهم
الذي امتد إلى أربعة شهور ، جهز السلطان عوض بن عمر القعيطي ١٦٠٠ تحت قيادة
سعيد أحمد الحضرمي اليافعي ، وسعيد بن علي النقيب اليافعي ، وسعيد حيدر البكري
اليافعي ، وكان هذا رئيسا على الهنود حيث كان يعرف لسانهم ، ثم زحفوا إلى

الغيل، وكان فيها من آل عمر باعمر ٢٥٠ ، ومن البلو ٢٠٠ ، ومن آل كثير ١٥٠ . وفي مقدمتهم عبود بن سالم الكثيري ، وعابض بن سالمين طالب الكثيري . وكان العوالق ومن يلحق بهم في حصن الصداع على أتم استعداد لمناصرة آل عمر باعمر ضد يافع . حاصر يافع الغيل يومين ثم أتاهم السلطان عوض بن عمر وأمرهم بالمهجوم . وفي فجر اليوم الثالث من الحصار زحفوا إلى الغيل ، وكان السلطان عوض ابن عمر في مقدمتهم يستحث همهم ويثير فيهم الحماسة ، ودامت الحرب إلى آخر النهار حتى إذا جاء الليل لم يبق في البلد من المدافعين سوى جماعة من آل عمر باعمر ، سلموا أنفسهم ليافع . واحتل يافع الغيل ، وكان عدد القتلى من آل عمر باعمر وأنصارهم ٧٨ رجلا ، ومن يافع وأنصارهم ٤٥ رجلا ، والجرحى في الفريقين كثيرون .



« منظر من غيل باوزير »

أما الأسرى من آل عمر باعمر وعددهم ٦٠ رجلا ، فقد أرسلوا إلى الشحر وبنجوا هناك . ثم زحف يافع إلى حصن الصداع ، وحاصروه وحاولوا الهجوم عليه ، فلم يستطيعوا إذ كان محاطا بالمرابطين من كل أنحائه وحفروا خندقا تحتم الأرض إلى الحصن ، فخاب سعيهم وقتل منهم خمسة ، ودام الحصار بضعة شهور ، وكاد العوالق

وأنصارهم يموتون جوعاً ، فاضطروا للتسليم ، واحتلّ يافع الحصن وملحقاته ، وسبّحوا لهم بالرحيل إلى آل عمر باعمر فقد أرسلوا إلى الشحر وسجنوا^١ .
أما الجيش الذي أرسل لمحاصرة تريم فقد اتفق الفريقان على الصلح . على أن يدفع آل كثير مصروفات الحصار ، ثم عاد يافع وآل تميم إلى المكلا .

استقلال نهد :

كان السلطان بدر بوطويرق الكثيرى قد احتلّ أكثر بلاد نهد وأدخلها تحت حكمه ، وكان آل عمر بن جعفر الكثيرى هم الولاة بالنيابة ، وكان بنو بكر في سدبة يتولون شؤون الناس ويندودون عن حوضهم من اعتداء آل محفوظ وغيرهم . وكانت إمارة لحروم وعندل في حوزة أحمد محسن الحثامى البكرى اليافعى ، ولما توفى أمير سدبة أحمد عبید البكرى وليس له وارث يرث الإمارة أمسى الأهالى في فوضى ليس لهم رئيس يقوم بأمرهم . وسافر الأمير أحمد محسن البكرى اليافعى إلى حيدر آباد للارتزاق ، إذ لم تقم لحروم وعندل بسد حاجياته ، ولم يكن له من عشيرته من يقوم بالأمر بعده ، فأصبحت لحروم في فوضى ، أما عندل فقد كان القائم فيها بشؤونها عامر جعيم المرفدى اليافعى بالنيابة عن أحمد محسن البكرى ، ولم يكن لهذا الوالى أنصار من عشيرته ولا من غيرهم من حملة السلاح ، فهو بمفرده بين آل با جابر وغيرهم من سكان عندل وكان ضعيف الإرادة ، عديم السياسة ، انحلت سلطته وتلاشت هيئته ، فأمسى نسيا منسيا ، وفي ذات يوم خرج من حصنه إلى جبل عندل فشاهده جماعة من آل منيف أهل نخماس ، فساروا إليه وقتلوه ، ثم ساروا إلى حصنه ونهبوا ما فيه من المال والطعام وهدموه وردموا بئرَه .

وكان لاندحار آل كثير من الشحر وشبام واستيلاء يافع أكبر مشجّع لنهد في الاستقلال وخلع طاعة آل كثير ، وأخذوا يهيئون أنفسهم ويعدون العدة للاستقلال

(١) قيل إن السلطان عوض بن عمر القميطنى حينما غضب من الجمعدار عبد الله بن على العواتى أوعده بأن يحتل حصن الصداق ويهدمه ويبعث برباب منه إلى حيدر آباد ويذره تحت جامع شار مناره ، وفعلا كان ذلك ، وتوفى الجمعدار عبد الله على العواتى حزينا أسفا .

ففي سنة ١٢٨٤ ثار آل منيف على الققم^١ واحتلوه ، ثم ساروا إلى صاحب الدهيل الأمير صالح بن عمر بن جعفر الكثيرى وقتلوه واستولوا على الدهيل وعلى لحماس ، وهكذا نالت نهد استقلالها ، التام ، ولم يكن بينهم من ينافسهم على الحكم والسلطان .
محاولة آل كثير احتلال الشحر لآخر مرة :

في سنة ١٢٨٦ جهز السلطان غالب بن محسن الكثيرى جيشا من قومه ومن العوامر وآل باجرى وآل جابر ، وزحف بهم إلى الشحر ، فثارت الحرب ، ولقد صدق آل كثير الحملة وأخذوا يندفعون إلى الأمام ويحتلون أطراف الشحر ، ولما رأى يافع أن النصر في جانب آل كثير هموا بالانسحاب ، وكان السلطان عوض بن عمر القعيطى في حصنه ، وعنده من عشيرته ٣٠ رجلا وفي مقدمتهم وزيره عبد الله عوض بن على القعيطى الذى قتل في ذلك اليوم . أراد السلطان عوض أن يتخلص من الحياة هو ومن حوله من رجاله ، فوضع البارود تحت الحصن وأمر أحد عبيده أن يفتح باب الحصن ويسمح لآل كثير بالدخول ، حتى إذا دخلوه أشعل البارود فموت جميع من في الحصن ، ولكن محمد حسين الشاخش غيرهم ولا مهم على بأسهم من النصر ، وأخذ يثير فيهم الحماسة بدلافة لسانه وسرعة بداهته حتى عادوا للحرب واندفعوا في شوارع المدينة كالسيل الجارف يقاتلون . ولقد ظن آل كثير أن مددا عظيما جىء به ليافع ، فانسحبوا إلا عبود بن سالم وهادى بن سيف وعبد الله بن صالح وغيرهم من رؤساء آل كثير ، فقد ثبتوا في أحد الحصون وأحاط بهم يافع ، فطلب عبود بن سالم الكثيرى وجماعته الأمان منهم ، وطلب أن يستصحبه حسين بن صالح المصلى اليافعى إلى خارج الشحر ، فأجابوهم إلى ذلك ، وأنزلوهم من الحصن ، يلىقون به من الاحترام وكن عدد القتلى من يافع ٤٥ ومن آل كثير ٩٥ . وعدد الجرحى من الفريقين كثير وون
وقعة المحليل (المحترقة) :

كان احتلال يافع الشحر بعث فيهم الحركة وحبّ النضال ، وكان انتصار القعيطى والكساذى وفوزهما في القيادة جعلهما يطمحان في توسيع نطاق الملك وامتداد (١) هو حصن شاقق واقع على مقربة من شراح ، بناه السلطان بدر بوطلويرق الكثيرى .

السلطان ، فأراد الهجوم على آل كثير في ديارهم بسيون وتريم ، فجهز ١٤٠٠ رجل من بينهم نحو ٤٠٠ من الهنود و ٢٠٠ من يافع المقيمين في شبام وقرى القطن ، واقترض الأمير صلاح بن محمد الكسادى اليافعى من السلطان عوض بن عمر القعيطى اليافعى مائة ألف ريال ليقوم بنصف مصاريف الحرب وتبقى في ذمته ، وسار بالجيش إلى شبام ثم زحفا شطر آل كثير ، وكان آل كثير قد بلغهم قدوم يافع لحربهم ، فتعرضوا لهم في المحترقة وهناك ثارت الحرب بين الفريقين ، وأخذ يافع يندفعون في حدود آل كثير واستمرت الحرب إلى الليل ، ووضع آل كثير البارود في بعض حصونهم وتخلوا عنها ، حتى إذا دخلها يافع أشعلوا فيهم البارود ، فصعد أحدها جماعة من يافع فأنفجر البارود وقتل ثلاثة منهم ، ثم اندحر يافع وانسحبوا ، وثبت الهنود وعليهم سعيد حيدر البكرى في مراكزهم ، ولكنهم لما رأوا يافع ينسحبون انسحبوا وعاد جميعهم إلى شبام . وكان عدد القتلى من يافع والهنود ٤٠ رجلا وسميت هذه الوقعة وقعة الحمايل أو المحترقة وكانت في أواخر سنة ١٢٨٦ ، وفي اليوم الثانى من تلك الوقعة زحف يافع على قارة آل عبد العزيز واحتلوا أغلب بيوتها ، ثم انسحبوا بعد أن جاء لآل عبد العزيز المدد من سيون . وقد قتل في هذه الوقعة القائد الباسل أحمد عامر الحضرمى اليافعى ، كان هجم على أحد الحصون وأخذ يفجر حائطه ، فراه من في الحصن فألقوه حجرة كبيرة على رأسه .

وقعة الغييضات :

ثم أراد السلطان عوض والأمير صلاح أن يثبرا حربا على آل كثير من ناحية الشرق ويأتيا بجيشهما من ناحية الغرب لتتوزع قوة آل كثير ويقل عددهم وتضعف صفوفهم ، فأرسل جيشا تحت قيادة عبد القوى غرامه اليافعى . ولما بلغ ذلك آل كثير جهز السلطان غالب بن محسن جيشا من عشيرته ، ومن العوامر وآل جابر وآل باجرى ، وجعل عليهم عبد الله بن على بن جعفر بن محمد الكثيرى ، وعبد الله بن أحمد عم السلطان غالب ، وكنوا ليافع في وادى الغييضات ، ولما انحدر يافع من أعلى الوادى

أحاط بهم آل كثير وأثخنوا في التزكيل بهم ، فانسحب يافع وعادوا إلى الشحر ، وكان عدد القتلى منهم سبعين ، منهم قائده عبد القوى غرامه وحسين بن صالح الجمهوري وابنه عبد القوى وقتل من آل كثير ثلاثون وجرح من الفريقين كثير .
ولما بلغ السلطان عوض انكسار يافع من الغييضات باد بالجليش إلى الشحر ، ثم عاد الأمير صلاح بن محمد الكسادى إلى المكلا ١ .

مساعى آل باعلوى السياسية للملك :

في ذلك الحين ظهر جماعة من آل باعلوى أرادوا الملك ، فسعوا له سعيًا حثيثًا ، وكان في مقدمة هؤلاء عقيل بن عبد الله بن يحيى باعلوى ، كان هذا الرجل سياسيًا ماهرًا في فنون الإغراء والتحرिश ، حاد الذكاء سريع البديهة قوى الحجة على الهمة كبير النفس ، بيد أنه كان سيء الحظ ، تأتبه الأمور بعكس ما يريد ، سعى لآل كثير ضد يافع توصلا إلى أغراضه فلم يفلح بغير الخسران ، وسعى ليافع ضد آل كثير فكان عاقبته الوبال . لكن ذلك لم يضعف همته ويوهن سعيه ويخمد حركته وراء مآربه ، فقد ذهب إلى الحموم ليجمع جيشًا منهم ضد آل كثير ، فرأى أن الأمر يفتقر إلى المال ، ثم ذهب إلى آل تميم لذلك الغرض ، فرأى أن الحاجة تدعو إلى الإنفاق أيضا ، لذلك كتب إلى أخيه عوض بن عبد الله بن يحيى باعلوى بسنقفورة وطلب إليه أن يجمع مالا يتوصل به إلى أغراضه ومطامحه ، وكان عوض رجلا متظاهرا بالورع والصلاح حتى وثقت به الناس الثقة التامة ، فهب يعمل لجمع المال ، وما هي إلا بضعة شهور حتى جمع مالا كثيرا من العطايا والهبات ، وصار له عملاء في بعض البلدان ، ومن أكبر عملائه سلطان كوتيه وسلطان فارى ، فقد كانا يرسلان له التبر أرتالا رغبة في البركة وطول العمر ، وكان بعض التجار يتقنون به ويودعونه أموالهم ، ومنهم بعض الأجانب مثل هافر تفلرى ومرتين ديس ورى منر ، وبعد أن جمع أموالا جمة هرب خفية إلى عدن

(١) قيل إن نزاعا حدث في شبام بين السلطان عوض والأمير صلاح ، وأن الأمير محمد بن عمر القميلى انضم إلى الأمير صلاح ، ولكننا لانعرف شيئا عن أسباب ذلك الخلاف ، وليس بين أيدينا دليل يثبت صحة ذلك .

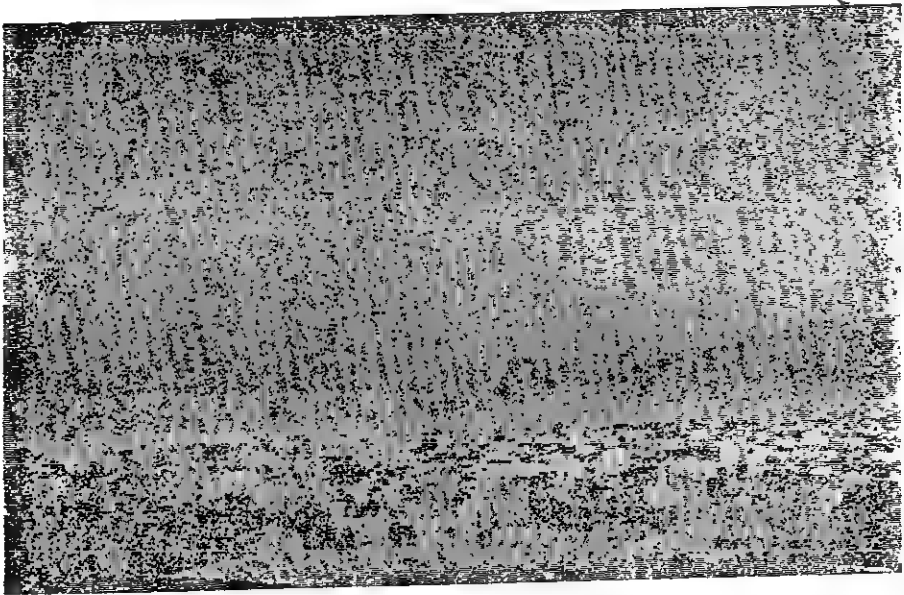
ومنها مشى برا إلى حضرموت ، ثم ذهب إلى آل تميم وحرّضهم على احتلال تريم وأمطر عليهم العطايا ، فأصبح آل تميم يشاكسون ويناوشون آل كثير في تريم ولكن من غير جدوى ، وعاد عوض بخفي حنين . ثم إنه رأى أن يستند إلى يافع ويستعين بقوتهم ضد آل كثير ؛ فسافر إلى المكلا ونزل ضيفا في قصر الأمير صلاح بن محمد الكسادي اليافعي ، وبذل غاية جهده في تحريكه للهجوم على سيون وتريم ، ولكن الأمير لم يرض بذلك وأجابه بأن الظروف تقتضي المحافظة على مركزه والدفاع عنه . ولما رأى أن الأيام تذهب عليه سدى والليالي تمرّ بدون جدوى عاد إلى بلده ، ثم ذهب إلى السلطان غالب بن محسن الكثيرى يحرّضه على احتلال الشحر متعهدا له أنه سيضمّ إلى صفه الحموم فلم يفتح أيضا ، ثم رأى أن يرحل إلى المكلا ويكبر آل كثير في عيون يافع ويعظم قوتهم أمام الأمير صلاح ، وفعلا سار إليه وأنبأه أن آل كثير ومن يلحق بهم على أتم استعداد لاحتلال المكلا فلم يفتح أيضا ، وعاد إلى سيون ، وهناك وجد جماعة من آل باعلوى وعلى رأسهم محسن بن علوى السقف يتباحثون في الوسائل التي تعيد الحرب جذعة بين يافع وآل كثير معتقدين أنهم لن ينالوا آمالهم إلا إذا اصطدمت الدولتان اصطداما يقضى على حياتهما أو حياة إحداهما ، ساروا إلى السلطان غالب ابن محسن الكثيرى وإلى أخيه الأمير عبد الله وإلى الأمير عبود بن سالم لتحريضهم على احتلال الشحر ، ولكن من حسن حظ الدولتين ومن سوء حظ هؤلاء لم ينجحوا كثيرا ولا قليلا فيما أرادوه .

وفاة السلطان غالب بن محسن الكثيرى :

في شهر رجب سنة ١٢٨٧ توفى السلطان غالب بن محسن الكثيرى في سيون عن ٦٤ سنة قضى أغلبها في الحرب والإمارة ، وكان قائدا مقداما وسلطانا حازما عادلا في حكمه رحما . كان أعظم رجل في آل كثير بعد السلطان بدر بوطويرق وأعظم شخصية بارزة ، أنفق ثروته لخدمة قومه وإعلاء شأنهم ورفع مقامهم ، أحيا العظام وهى رميم ، أحيا ملك آبائه بعد اندثاره ، فهو يعتبر المؤسس الأول للدولة الكثيرية الفتية .

امتداد سلطة يافع على الشواطئ :

في أواخر سنة ١٢٨٧ أرسل السلطان عوض بن عمر القعيطى ٣٠٠ رجل من يافع إلى قرية الحامى واحتلوها من غير حرب ثم سار الجيش إلى رأس باغشوة واحتلوها بدون حرب ثم احتلوا القرن والديس دون أن يلقوا أمامهم مقاومة شديدة ، وفي أواخر سنة ١٢٨٨ أرسل إلى قصيعر ٥٠٠ رجل من يافع وكان فيها جماعة من الحموم فثارت الحرب بين الفريقين وقتل من الحموم سبعة ومن يافع ثلاثة واحتلوها .



« سيون كما هي الآن »

محاولة آل كثير احتلال شبام :

في شهر ذى الحجة سنة ١٢٩١ سار كثير من يافع من أهل شبام إلى قرى القطن لقضاء أيام العيد بين أقربائهم ، ولم يبق في المدينة منهم سوى الأمير عبد الله بن عمر القعيطى و٢٩ رجلا من يافع و١٥٠ من العبيد ، فانتهر هذه الفرصة آل كثير وهجموا يوم الزينة على شبام ودخلوها ، وأخذ بعضهم يكسرون أبواب الدكاكين ، وينهبون

المتاجر والتفود ، وكان يافع أرسلوا إلى قومهم في قرى القطن يطلبون منهم المدد ، فجاءهم أولا سبعون رجلا من آل علي جابر ، ثم جاء ٥٠٠ رجل من أفخاذ يافع ، فزادت الحرب اشتعالا في شبام ، وأفقرت شوارع المدينة من الناس سوى يافع وآل كثير ، وكان الأمير عبد الله بن عمر القعيطي يطوف على المراصد البافعية راكبا



« المكلا »

فرسه يخيم على الإقدام والاستمرار في الحرب إلى النهاية . وكان يمر أحيانا بين آل كثير فيحسبونه أحدا من آل باعلوى ، إذ كانت ملابسه بيضاء ، وكانت عمامته كبيرة ، فانكسر آل كثير ، وانسلوا من شبام أفرادا وجماعات ، وكان عدد القتلى من يافع ٧ ، ومن آل كثير ٢٥ ، دفن منهم عشرون في بقعة أمام باب شبام يقال لما الآن نخل عشرين .

اهتمام الكسادي بالمكلا :

اهتم الأمير صلاح بن محمد الكسادي بالمكلا ، فقد بذل أقصى مجهوده في تدبير شئون الرعايا ، والإشراف على مصالحهم العامة ، وتنظيم الجيش ، وكانت حالة المكلا

يومئذ أحسن من الشجر . وأكثر رخاء ، وأوفر راحة وهناء ، حتى هبطها خلق كثير من حضرموت الداخلية ومن عدن ، وما انفكت نفسه تطمح في توسيع ملكه ، ومد نفوذه . فأرسل إلى دو عن جيشا تحت قيادة النقيب مجحم ، فاحتل قرى كثيرة وفي أثناء الحرب توفي الأمير صلاح بن محمد الكسادى اليافعى ، فزلزل الناس لوفاته زلزالا شديدا ، وكادوا يصعقون لشدة الحزن عليه ، فقد كان رجلا شهما كريما شريفا . لقد كان لهم أبا شفوفا يؤله ما يؤلههم ، ويفرحه ما يفرحهم . وقام بالأمر بعده ابنه الأمير عمر بن صلاح الكسادى اليافعى ، وكان لا يقل عن أبيه في الحكم والحزم والإخلاص لشعبه ، والتفانى في خدمته ، كان عزيزا إلى أقصى درجات الغز شريفا إلى أقصى درجات الشرف . وقد كان يقوم مقام أبيه في الحكم وتدير شئون الأهلىن ، ويتولى قيادة الجيش في ساحات القتال .

اتهى الجزء الأول ، ويليه : الجزء الثانى

بحمد الله وحسن توفيقه تم طبع الجزء الأول من كتاب « تاريخ حضرموت السياسى » مصححا بمعرفة لجنة من العلماء برئاسة الشيخ مرسى سلامة لاشين . من علماء الأزهر الشريف بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر .

[١٤٧ / ٩ / ٢٠٠٠ / ١٩٥٦]

مدير المطبعة
رسم مصطفى الحلبي

القاهرة في { ١٩ صفر سنة ١٣٧٦ هـ
٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٦ م }

فهرس

الجزء الأول من تاريخ حضرموت السياسى

صفحة

٣ المقدمة .

٧ جغرافيا وجيولوجيا حضرموت .

نهر حجر ، الجيولوجيا الطباقية ، عصر البليوسين ، عصر الأيوسين العصر
الطباشيرى . العصر الجوراسى ، الصخور المتبلورة ، الجيولوجيا الاقتصادية ،
الطبقات المحتوية على الزيت ، معدن الراتينج ، الملح الصخرى ، القار والحجر
الرملى القارى ، نترات البوتاسيوم ، حجر الدم ، المنجنيز ، الشب البوكسيت ،
الحجر الجيرى والرخام ، الجبس حجر الصابون ، التاريخ الاقتصادى .

٢٧ نظرة عامة فى تاريخ حضرموت قبل الإسلام .

عاد ، الأقبال ، الدولة الحميرية ، نظام الدولة الحميرية السياسى والاجتماعى
ازدهار التجارة فى عهدهم ، حضارة حضرموت ؛ المعارف فى عهد الحميريين ،
الزراعة ، القريون ، المعادن .

٤٧ الآثار . أطلال غيبون ، مقابر الملوك ، وادى عمد ، وادى ثقب ، ديار عاد ؛
أطلال سون ، أطلال حصن العر ، قبر هود . قبر صالح ، بئر برهوت ، مدينة
مينون الحاوية ، نقوش وكتابات على صخور .

٥٨ دخول الإسلام فى حضرموت .

كندة فى دورها الأول الإسلامى ، امتناعها عن دفع الزكاة ، حضرموت تطالب
بالخلافة ، انكماش دولة كندة .

٧٢ دخول حضرموت فى طاعة العباسيين .

٧٣ الحضارم والهجرة ؛

٧٥ نهضة حضرموت العلمية .

٧٧ خروج آل باعلوى إلى حضرموت .

- ٧٨ انحلال دولة كندة .
- ٧٩ إمارة آل راشد .
- ٨١ استيلاء الزنجيلي على حضرموت .
- ٨٣ نهج .
- شجرة سلالتهم ، احتلالهم حضرموت الوسطى ، عودتهم إلى بلادهم .
- ٨٩ الدولة الكثيرية (في دورها الأول) .
- ٩١ كندة في دورها الثاني .
- ٩٢ محاولة كندة احتلال عدن .
- ٩٤ الحالة السياسية بعد وفاة محمد بن سعيد الكندي أمير الشحر .
- ٩٥ الدولة الكثيرية (في دورها الثاني) .
- بدر بو طويرق الكثيري ، خروج يافع إلى حضرموت ، ظهور حزب سياسي منافس له ، إرساله جيشه لفك حصار الترك . اعترافه بالطاعة للترك وعزله من الحكم ، السلطان عمر بن بدر العادل الكثيري . الخلاف بين السلطان بدر ابن عبد الله الكثيري وبين عمه الأمير بدر بن عمر الكثيري .
- ١٠٤ خروج الزيود إلى حضرموت .
- ١٠٧ الدولة الكثيرية (في دورها الثالث) .
- انكماش سلطتها ، امتداد سلطة يافع ، السلطان عمر بن جعفر الكثيري واحتلاله الشحر ، محاولته استرداد شبام وسيون وتريم من يافع .
- ١١١ الدولة الياضية .
- سلاطينهم في البلاد السفلى ، سلاطين يافع بنى قاصد ، أمراء خرقة والضالع من يافع ، آل غرامة ، يافع (الرتب) في الثغرين ، آل بريك ، آل كسادى .
- ١١٧ ابتداء ظهور مساعى آل باعلوى السياسية ضد يافع .
- ١١٩ الفتن بين يافع الرتب .
- ١٢١ والى تريس .
- خروج آل بكر من مربعة .
- فتنة شبام .

صفحة

- ١٢١ قتلة ابن علي جابر . إتيان يافع عمر بن جعفر الكثيرى لإدارة شئونهم . إجلاء
الأمير منصور بن عمر الكثيرى ليافع من شبام .
- ١٢٣ الدولة الكثيرية (فى دورها الرابع) .
- ١٢٥ وقعة وادى جثمة .
- سقوط سيون :
- ١٢٧ تأثير سقوط سيون فى يافع .
- محاولة يافع احتلال سيون .
- ١٢٩ وقعة مريرة المشهورة .
- ١٣٠ نهوض يافع لاسترداد سلطتهم من جديد .
- سفر وفد هم إلى الهند . خروج عمر بن عوض القعيطى إلى حضر موت ، احتلالهم
سعيدية ونصف مدينة شبام .
- ١٣١ قدوم الشريف حسين .
- ١٣٢ قتل الأمير منصور بن عمر الكثيرى فى شبام .
- خروج آل عمر بن جعفر من هين .
- ١٣٣ حرب السحيل .
- ١٣٤ محاولة آل كثير احتلال الشحر .
- صدى سقوط الشحر فى يافع .
- ١٣٦ احتلال غيل باوزير .
- ١٣٨ استقلال نهد .
- ١٣٩ محاولة آل كثير احتلال الشحر لآخر مرة .
- وقعة المحترقة .
- ١٤٠ وقعة الغيصات .
- ١٤١ مساعى آل باعلوى السياسية للملك .
- ١٤٢ وفاة السلطان غالب بن محسن الكثيرى .
- ١٤٣ محاولة آل كثير احتلال شبام .
- ١٤٤ اهتمام الكسادى بالمكلا .